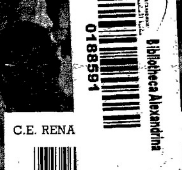
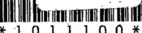
نجيب



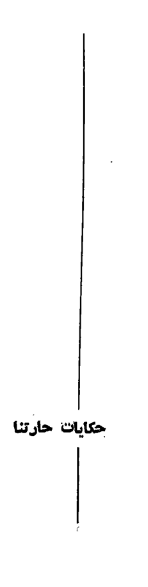





دار القلم
بيروت - لبنان


حكايات حارتنا

**GIFTS OF 1996**
BIBLIOTHEQUE
INTERUNIVERSITAIRE DES
LANGUES ORIENTALS
PARIS

نجيب محفوظ

# حكايات حارتنا



ص.ب ٣٨٧٤
بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى
١٩٧٨

## الحكاية رقم (١)

يروق لي اللعب في الساحة بين القبو والتكية . ومثل جميع الاطفال ارنو الى اشجار التـوت بحديقة التكية . اوراقها الخضر هي ينابيـع الخضرة الوحيدة في حارتنا . وثمارها السود مثار الاشواق في قلوبنـا الغضة . وها هي التكية مثل قلعة صغيرة تحدق بها الحديقة ، بوابتهـا مغلقة عابسة ، دائما مغلقة ، والنوافذ مغلقة ، فالمبنى كله غارق في البعد والانطواء والعزلة ، تمتد أيدينا الى سوره كما تمتد الى القمر .

واحيانا يلوح في الحديقة ذو لحية مرسلة وعباءة فضفاضة وطاقيـة مزركشة فنهتف كلنا :

ــ « يا درويش .. ان شا الله تعيش » .

ولكنه يمضي متأملا الارض المعشوشبة او يتمهل عند جدول ماء ، ثم لا يلبث ان يختفي وراء الباب الداخلي .

ــ من هؤلاء الرجال يا أبي ؟

ــ انهم رجال الله ..

ثم بنبرة ذات معنى :

ــ ملعون من يكدر صفوهم !

ولكن قلبي مولع بالتوت وحده .

وينهكني اللعب ذات يوم فأجلس على الارض لاستريح ثم اغفو . استيقظ فأجدني وحيداً في الساحة ، حتى الشمس تـوارت وراء الســور العتيق ، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بانفاس الاصيل . عليَ ان امرق من القبو الى الحارة قبل ان يدلهم الظلام . وأنهض متوثبا ولكن احساسا خفيا يساورني بأنني غير وحيد ، وانني اهيم في مجال جاذبية لطيف ، وان ثمة نظرة رحيبة تستقر على قلبي ، فأنظهر ناحية التكية . هنـــاك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل. درويش ولكنه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل . طاعن في الكبر ، مديد في الطول ، وجهه بحـيرة من نور مشع . عباءته خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن شدة حملقتي فيه أثمل بنوره فيملأ منظره الكون . وخاطر طيب يقول لي انه صاحب المكان وولي الامر ، وانه ودود بخلاف الاخرين . اقترب من السور ثم اقول بابتهال :

ــ اني احب التوت ..

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم انه لـم يسمعني ، أكـرر بصوت أعمق :

ــ اني احب التوت ..

يخيل اليّ انه يشملني بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

ــ « بلبلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد » .

ويخيل اليّ انه رمى اليّ بثمرة فأنحني نحو الارض لألتقطها فـلا اعثر على شيء ، ثم استقيم فاجد مكانه خاليا ، والظلمة تغشـى الباب الداخلي .

واقص القصة على ابي فيرمقني بارتياب فأؤكدها له فيقول :

ــ تلك الاوصاف لا تكون الا للشيخ الكبير ولكنه لا يغـادر خلوته !

فأحلف له على صدقي بكل مقدس فيسألني :

ــ ترى ما معنى الرطانة التي حفظتها ؟

ــ سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية ..

فيصمت ابي مليا ثم يقول :

ــ لا تخبر بذلك احدا .

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع الى الساحة فأتخلف وحدي بعد ذهاب الصبيان . انتظر ظهور الشيخ فلا يظهر . اهتف بصوتي الرفيع :

ــ « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

فلا يجيب . اعاني بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتي .

واتذكر الحادثة في زمن متأخر ، أتساءل عن حقيقتها ، هـل رأيت الشيخ حقا او ادعيت ذلك استوهابا للاهمية ثم صدقت نفسي ؟ ، هـل توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال في بيتنا عن الشيخ الكبير ؟ . هكذا افكر ، والا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة اخرى ؟ . ولماذا يجمع الناس على انه لا يغادر خلوته ؟ . هكذا خلقت أسطورة وهكـذا بددتها . غير ان الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت في اعـماق نفسي كذكرى مفعمة بالعذوبة . كما انني ما زلت مولعا بالتوت .

## الحكاية رقم (٢)

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفي فـوق السطح ارى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز في سور السطح

مربوط به حبل الغسيل . أرمق السطح الملاصق فيتحلب ريقي . تحدثني نفسي بأن اذهب الى ست أم زكي لأحظى بشيء من الحلوى . واعبر السور ، أمضي نحو المنور ، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست ام زكي عارية تماما . تجلس على كنبة تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما .. منظر غريب وباهر ، وهي في ضخامة بقرة . وأهتف :

ـ يا تيزة !

ترتعب ، تنظر الى فوق ، لا تلبث ان تضحك ، تصيح بي :

ـ يا عكروت .. انزل ..

أهبط بسرعة ثم اقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

ـ أدخل ؟

وتسمح فأدخل ، اقترب من مجلسها فترمقني بنظرة باسمة وتقول :

ـ وقعت يا بطل ..

وتستلقي على بطنها وتقول :

ـ دلك لي ظهري .

اشمر عن ساعدي ، أدلك ظهرها بحماس ورضى ، أشم رائحة جسد بشري معبق بالصابون والقرنفل ، وهي تتمتم :

ـ تسلم يداك !

ثم بمزاح :

ـ انت عفريت من الجنة !

ثم وهي تضحك :

ـ الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسي في العمل فتقول :

ـ ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر امك ؟

ـ كـلا .

فتضحك وتقول :

ـ وعارف ايضا انه يوجد ما لا يقال ، حقيقة انك شيطان ، هل تعلمت التدليك في الكتاب ؟ ، ماذا تدرس في الكتاب ؟

ـ الفاتحة وألف باء .

ـ ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم ؟

ـ بامية .

ـ عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح ، تنثال الملح من فيها بـلا حساب ، وكذلك النكات المكشوفة ، فتحاول امي ان تبعدني ولكني ارجع ، وتشير لها اشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتمادى هي في الدعابة .

وتسألها امي معاتبة :

ـ متى تصلين وتصومين ؟

فتجيب :

ـ في آخر شهر قبل يوم القيامة .

في الخمسين ، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء ، وعمل ابنها زكي نجارا في حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس . وهي تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية ، أرملة ، في كل بيت لها صديقة حميمة ، لم تشتبك في مشاجرة واحدة في حارتنا الحافلة بالمشاحنات .

***

وتتنهد امي ذات يوم وتقول :

ـ مسكينة يا ام زكي ، ربنا يرعاك ويشفيك ..

تنوعك صحتها ، وتأخذ في التدهور ، تهزل بسرعة مذهلة كأنهـا كرة ثقبت ، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية ، وتخيب فـي شفائها كافة الوصفات . وتفتي حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الامراض المعروفة ولكنه فعل من افعال « الاسياد » وألا شفاء لها الا بالزار . ويجيء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء ، ويعبق بالبخور ، وتتسلط عليه جوقة مـن السودانيات يكتنفهـن الغموض والاسرار . واطل برأسي من المنور فأرى صديقتي في مشهـد جديد ، تجلس على عرش في عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الالوان ، منقوعة القدمين في وعاء من ماء الورد تستقر في قعره حبات من البـن الاخضر . وتـدق الدفوف ، وتهزج الحناجر النحاسية بالاناشيد المرعشة ، فتفوح في الجو أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت صاحبته المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعـة بالحركات ، وتتوهـج بالتأوهات ، وتذوب الاجساد في الارواح . وها هي ام زكي تتلوى بعنف كأنما ردت الـى جنون الشباب ، وعن فيها المزين بالاسنان المذهبة يصدر صفير حاد ، ثم تركض دائرة حول العرش ، ويتحول ركضها الى اندفاع رهيب ، وتدور وتدور حتى تترنح من الاعياء وتتهاوى مغشيا عليها ..

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلا :

ـ ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .



وها هي الايام تمر .

وصحة صديقتي لا تتحسن .

لا تمزح الان ولا تضحك وتتساءل في جزع :

ــ ماذا جرى لي ؟ .. ماذا جرى لي يا رب ؟ ! •• أين أنت يــا أم زكي ؟ !

ويضطر المعلم زكي اخيرا الى نقلها الــى قصر العيني . وتودع عيناي الدامعتان الكارو وهي تتأرجح بها • وتلمحني واقفا فتلوح لي بيدها وتقول :

ــ ادع لي فان الله يستجيب لدعاء الصغار .

فأرفع عيني الى السماء واتمتم : « يا رب .. رجع لنــا تيــزة أم زكي » .

ولكن كأن الكارو حملتها الى بلاد الواق واق .

## الحكاية رقم (٣)

اليوم جميل ولكنه يعبق بسر .

أبي ينظر اليّ باهتمام . يبتسم لي برقة وهو يحتسي قهوته . وهو يهم بالذهاب يداعب شعري ويربت على منكبي بحنان ثم يمضي .

وامي تقوم بعملها اليومي بعصبية ، تغضي عن عبثي وتقــول لي مشجعــة :

ــ العب يا حبيبي ..

لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد .

واصعد الى السطح بعض الوقت ولما ارجع اجد امامي جارتنــا الشامية ام برهوم . اعدو الى المطبخ لأخبر امي ولكني لــم اجدها . وانادي عليها بلا جدوى فتقول لي ام برهوم :

ــ نينتك ذهبت في مشوار ، وانا معك حتى ترجع ..

فأقول محتجا :

ـ ولكني اريد ان العب في الحارة .

ـ وتتركني وحدي وانا ضيفتك ؟

واصبر متضايقا .

ويدق الباب فتومىء لي بالانتظار وتذهب . تغيب دقيقة واذا بعم حسن الحلاق ومساعده يدخلان باسمين فقلت لهما من فوري :

ـ ابي خرج .

فقال العجوز :

ـ نحن ضيوف ! ، سنريك لعبة فريدة .

وجلس على كنبة وهو يبسمل ثم قال وهو يخرج من حقيبتـــه ادوات بيضاء لامعة :

ـ يسرك بلا شك ان تتعلم كيف تستعمل هذه الادوات .

وأهرع نحوه متملصا من ارتباكي !

ويجيء مساعده بمقعد فيجلسني عليه امام المعلم قائلا :

ـ هكذا افضل .

واذا بيديه تكبلاني من الذراعـين والساقين بقوة واحكام فكأنها ألصقت بالغراء والمسامير ، فصرخت غاضبا :

ـ ابعد عني .

واستغثت بأم برهوم ولكنها كانت فص ملح ذاب ..

ولم افهم شيئا مما يحدث حتى بدأت العملية الرهيبة ، ها انا اعاني هجمة وحشية طاغية لا استطيع لها دفعا ولا منها مفرا . وها هو الالم الحاد القاسي ينشب أظافره الشوكية في لحمي وينساب بمكر شيطاني الى اطراف جسمي وصميم قلبي . وها هو صراخي يدك الجدران ويجتاح أرجاء حارتنا .

***

لا ادري ماذا يدور مدة من الزمن . أغوص في الماء بين اليقظة والنوم . تمر بي اجيال من الالوان والمخاوف والاحزان .

وعند نقطة من الزمن تلوح لي امي بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع .

وقبل ان افتح فمي محتجا او متهما تضع بين يدي هدايا الشيكولاطة والملبس .

واعيش اياما بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة .. ويمتلىء البيت بالاخوة والاخوات .

واتنقل من مكان الى مكان مفرجا بين فخذي مبعدا بيدي الجلباب عن جسدي .

## الحكاية رقم (٤)

وانا ماض نحو القبو ينفتح باب بيت القيرواني تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث . منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . بيضاوات ملونات الشعر والاعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحة نقية . الدوكار ينتظرهن فأتسمر انا بين الدوكار وبينهن . ويرين ذهولي فتضحك وسطاهن وهي أشدهن امتلاء واغلظهن شفة وتقول :

ــ ما له يسد الطريق !

لا اتحرك فتخاطبني مداعبة :

ــ افق يا انت !

واقول متأثرا بدفقة حياة مبهمة :

ــ بلبي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد .

فيغرقن في الضحك وتقول الكبرى :

ــ انه درويش .

فتقول الوسطى :

ــ انه مجنون !

والقي بنفسي في ظلمة القبو فامضي مهرولا حتى اخرج الى نور الساحة امام التكية . في رأسي حماس وفي قلبي نذير نشوة البراعم قبل ان تتفتح .

صورهن الباهرة مستكنة في متحف الاعماق .

بذور حب لم يتح لها ان تنمو لانها غرست قبل اوانها .

## الحكاية رقم (٥)

اليوم سعيد .

ساذهب في صحبة امي الى زيارة حرم المأمور .

هطلت الامطار في الصباح الباكر ولكن الجو رق وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس . المياه تغمر فجوات الطريق وتخدد جوانبه ولكنني سعيد بزيارة حرم المأمور .

امرأة عملاقة ، سمراء دكناء ، في نقرة ذقنها وشم ، ونبرتها ريفية غريبة ، وضحكتها عالية ، وقطتها غزيرة الشعر نقية البياض ودائما تسبح بذكر الله .

وتعانق امي مرحبة وانا انتظر . تلتفت نحوي ضاحكة وهي تعبث بشعر رأسي ، ترفعني بين يديها فارتفع فوق الارض عاليا ، تضمني الى صدرها فاغوص في اعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها الى جوارحي دفء مؤثر .

اسير وراءهما وانا اسوي ما تشعث من شعري وملابسي ولما أفق من نفحة الدفء .

وتقول لأمي :

ــ بت أومن بان القبو مسكون بالعفاريت ..

فتبسمل امي فتقول الاخرى :
ـ انهم يخرجون عقب منتصف الليل .
فتقول لها امي محذرة :
ـ اياك وان تنظري من النافذة .
وألاعب انا القطة حتى تتوارى تحت الكنبة . انظر الى رأس ثـور مثبت في الجدار فوق سيفين متقاطعين متمنيا الوصول اليه . المضيفـة تقدم لي قطعة هريسة فاتناولها . امني النفس بحضن دافىء آخر عنـد انتهاء الزيارة .
ويطول الحديث ويتشعب .
وتشعل المرأة المصباح الغازي المدلى من السقف .
تدور حول المصباح فراشة .
أتساءل متى تجيء لحظة الوداع الواعدة بالدفء ؟

## الحكاية رقم (٦)

على حصيرة واحدة نقعد صبيانا وبنات في الكتاب . نتلو الايات بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيدنا الشيخ بين قدم صبي وقدم بنت . وقت الغداء يتربع كل منا مستقبلا الجدار بوجهه ، يفك الصرة ويفرش منديله كاشفا عن الرغيف والجبن والحلاة الطحينية .
تسترق عيناي النظر الى درويشة وهي تقرأ أو تأكل .
في الطريق اتبعها حتى تميل الى الزقاق المسدود ثم أسير الى بيتي حاملا لوحي وصورتها .
وفي موسم القرافة أضيق بالمكوث في الحوش فأمرق الى الخارج فنتلاقى ـ انا ودرويشة ـ بين القبور المكشوفة بلا تدبير .
واشطر فطيرتي فأعطيها النصف ، نأكل وتتبادل النظر .

ــ اين تلعبين ؟
ــ في الزقاق .
هي تلعب في الزقاق المتفرع من الحارة وانا لا أجرؤ على التسلل اليه في النهار . يمنعني احساس خفي ولكنه غير بريء . وتتواعد بالنظر وبلا كلام . ومع المساء ادخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب .
نقف شبحين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام .
ــ نجلس ؟
ولكنها لا تجيب .
اجلس على العتبة واشدها من يدها فتجلس . أتزحزح حتى تتلاصق . يغمرني شعور بسرور غريب ذي أسرار . امد يدي الى ذقنها فأدير وجهها الي . أميل نحوها فأقبلها . أحيط خاصرتها بذراعي . اصمت واهيم واذوب في دفقة احساس مبهمة فأعرف السكر قبل الخمر .
وننسى الوقت والخوف .
وننسى الاهل والحارة .
حتى الاشباح لا تفرقنا .

## الحكاية رقم (٧)

في ليالي الصيف نسهر فوق السطح ، نفرش الحصيرة والشلت ، نستضيء بأنوار النجوم او القمر ، تلعب من حولنا القطط ، يؤنسنا نقيق الدجاج . وتنضم الينا في بعض الاحيان اسرة جارنا الحاج بشير ، وهي اسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن في العاشرة . يحلو لهن في اوقات السرور ان يغنين معا اغنيات جبلية فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفي بالبشرة البيضاء والاعين الملونة . أهيم بالام وبناتها وألح في طلب السماع ، ويستخفني الطرب فأشارك في الغناء وأحرز في ذلك

نجاحاً واعجابا حتى تقول جارتنا :
ــ ما احلى صوتك يا ولد !
واجد في مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتي الصوتية كما يجد فيه قلبي الصغير نشوته في حضرة البهاء الانثوي . ويصبح الغناء هوايتي، وسماع اسطوانات المهدية قرة عيني ، اما اغنيات الجبل فينشدها قلبي وحنجرتي معا .
وتقول جارتنا لامي ذات يوم
ــ الولد له صوت جميل .
فتقول امي بسرور :
ــ حقــا ؟
ــ لا يجوز اهماله !
ــ فليغن كيف شاء فهو افضل من العفرتة .
ــ الا تودين ان يكون ابنك مطربا ؟
فتؤخذ امي ولا تجيب فتواصل الجارة :
ــ ماله سي انور وسي عبد اللطيف ؟
ــ اني احلم ان أراه يوما موظفا مثل أبيه واخوته ..
ــ المغني يربح اكثر من مصلحة حكومية .
واصغي باهتمام وانــا جالس على حجر الجــارة مزهوا بالدفء والمجـــد .

***

ولا تدوم ايام السعادة والفن طويلا فذات يوم ارى امي تهز رأسها بأسف وتتمتم :
ــ يا للخسارة !

فأسألها عما يؤسفها فتقول :
ــ جيراننا الطيبون راحلون الى بر الشام .
ينقبض قلبي بالرغم من انني لا أحيط بأبعاد الخسارة وأسأل :
ــ أهو بعيد ؟
فتجيب بحزن :
ــ ابعد مما نستطيع ان نبلغه .
أود من صميم قلبي ان اغير الواقع ، ان ارجع الزمن الى أمس ، ولكن كيف ؟
وأودعهم للمرة الاخيرة وهم يستقلون الحانطور وأقبل يد الحاج بشير . وأتبع الحانطور نظري حتى يخفيه منعطف النحاسين . وأبكي طويلا واعاني مذاق الفراق والكآبة والدنيا الخالية ..

## الحكاية رقم (٨)

مواسم الخرافة تعد من أسعد ايامي البهيجة .
نشرع في الاستعداد لها مع العشي باعداد الفطير والتمر . وفي الصباح الباكر امضي بين ابي وامي حاملا الخوص والريحان ، تتقدمنا الخادمة بسلة الرحمة .
يسرني تدفق تيارات الخلق ، وطوابير الكارو ، وأعرف باب الحوش كصديق قديم . ويجذبني القبر بتركيبه الوقور المنعزل وشاهديه الشامخين ، وسره المنطوي ، وباجلال والدي له ، كما تجذبني شجيرة الصبار . وتحت قبة السماء تنطلق مني وثبات فرح . ودفقات استطلاع لا يكدرها شيء ، ثم تتم المسرات بمراقبة المقرىء الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة .
وتتغير الصورة بدخول همام في اطارها .

تجيء اختي وابنها للاقامة عندنا فترة من الزمن . همام في الرابعة او يزيد عنها قليلا ، أجد فيه رفيقا ذا حيوية وجاذبية ، يخرجني بمؤانسته من وحدتي . جميل خفيف الروح ، يلاعبني بلا ملل ويصدق أكاذيبي واوهامي .

واجده ذات يوم راقدا وصامتا ، ادعوه الى اللعب ولكنه لا يستجيب ، وأخبر بانه مريض ..

ويطبق على الجو اهتمام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى احاسيس مبهمة وغير سارة ، ويزيد من تعاستي قلق امي وجزع اختي ثم حضور زوجها ..

وأسأل عما يحدث فأبعد عن المكان ويقال لي :

ــ لا شأن لك بهذا .. العب بعيدا ..

ولكني اشعر بأن حدثا غير عادي يحدث ..

انه خطير حتى ان امي تبكي . واختي تصرخ . والمح من بعيد صديقي مغطى فوق الفراش مثل وسادة . لم يترك له متنفس . واخيرا يتردد اسم الموت من قريب . وافهم انه فراق يطول فأبكي مع الباكين ، ويتألم قلبي أكثر مما يجوز لسنه .

لا تعود زيارة القبر من ايامي البهيجة ، ويتغير وقع منظره . اود ان اطلع على خفاياه ، وأتلقى الكآبة من صمته . ولا يعزيني ان يقال ان همام يمرح في الجنة ويسقي ازهارها . ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كر الايام . انه الحزن والحب الضائع والخوف والذكرى القاسية وارهاق اسرار الغيب .

**الحكاية رقم (٩)**

خبر يتردد في البيت والحارة .

تقول احدى الجارات لأمي :

ــ اما سمعت بالخبر العجيب ؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول :

ــ توحيدة بنت أم علي بنت عم رجب !

ــ ما لها كفى الله الشر ؟

ــ توظفت في الحكومة !

ــ توظفت في الحكومة ؟

ــ اي والله .. موظفة .. تذهب الى الوزارة وتجالس الرجال !

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .. انها من اسرة طيبة .. وامها طيبة .. وابوها رجل صحيح !

ــ كلام .. أي رجل يرضى عن ذلك ؟

ــ اللهم استرنا يا رب في الدنيا والآخرة ..

ــ يمكن لأن البنت غير جميلة ؟

ــ كانت ستجد ابن الحلال على اي حال ..

واسمع الالسن تلوك سيرتها في الحارة ، تعلق وتسخر وتنتقد ، وكلما لاح ابوها عم رجب أسمع من يقول :

ــ اللهم احفظنا ..

ــ يا خسارة الرجال !

توحيدة اول موظفة من حارتنا . ويقال انها زاملت اختي الكبرى في الكتاب . ويحفزني ما سمعته عنها الى التفرج عليها حين عودتها من العمل . أقف عند مدخل الحارة حتى اراها وهي تغادر سوارس ، أرنو اليها وهي تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة الخطوة بخلاف النساء والبنات في حارتنا . وتلقي علي نظرة خاطفة او لا تراني على الاطلاق ثم تمضي داخل الحارة . وأتمتم مرددا كالببغاء :

ـ يا خسارة الرجال !

## الحكاية رقم (١٠)

ام عبده أشهر امرأة في حارتنا .

في قوة بغل وجرأة فتوة ، حتى زوجها سواق الكارو يتراجع امام عنفها .

ولها بنتان جميلتان ، دولت واحسان .

في اي موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، من التاجر والعامل والبائع والصعلوك ، في كل اسرة لها عمل وأجر ، هي الوسيطة والشفيعة والخاطبة والدلالة والماشطة ، وعند الخصومة فهي القوة التي تبطش بالخصم .

وتزور امي احيانا فتحكي لها عن احوالها . وقد يقتضي الامر تمثيل ما وقع في آخر مشاجرة شاركت فيها فيرتفع صوتها ويتهدج بالغضب والسب والقذف حتى يتوهم السامع ان التمثيل مشاجرة حقيقية ..

وهي تجاملنا في المواسم فتجيئنا بالكارو لتمضي بنا الى زيارة المغاوري وابي السعود طبيب الجراح .

وانا الرسول الذي يوفد الى بيتها عند الحاجة . اذهب اليه بقلب طروب يتوق الى رؤية الحمار المربوط الى وتد في البناء ، ويتوق للقرب من دولت واحسان .

دولت فتاة طيبة ، تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . يحبها شاب متعلم من حارتنا فيتزوج منها متخطيا الفوارق ومجازفا بمصاهرة أم عبده .

احسان صورة مصغرة من امها في أخلاقها ولكنها باهرة الجمال .

مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة ، تتحدى امها نفسها فتنشب بينهما المعارك المثيرة . ويطلب يدها فتيان كادحون ولكنها ترفضهم تطلعا لفرصة فريدة كما حدث لاختها دولت . واني صديقها رغم فارق السن . غرائزي الكامنة ترسل انذارات خفية تمتزج في عيني بأشواق مبهمة . يبهرني حجمها المترامي وأعضاؤها الثرية المتراقصة . وتدعوني احيانا لاساعدها وهي تغسل في الفناء . احمل اليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبية وامضي كالمترنح من ثقلها . اجلس قبالتها لاتسلم منها الملابس بعد عصرها لاكومها في الطشت . في اثناء ذلك تتلصص عيناي وهي ترمق تطلعاتي باسمة .

وتقول لي ذات مرة :

ــ خذ منديلي واذهب به الى الشيخ لبيب .

واذهب الى الشيخ لبيب في مجلسه قبيل القبو . يتربع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيته البيضاء ، مكحول العينين مزجج الحاجبين . أعطيه المنديل ومليما وقطعة سكر ، فيشم المنديل ويتفكر مليا ثم يقول :

ــ عما قريب يمتلىء الكرار ويغني العصفور ..

وارجع اليها وانا اردد ما سمعته لاحفظه ، ويسعدني دائما ان أؤدي لها خدمة من الخدمات .

ويطلب يدها صاحب محل فراشة ، غني في الخمسين ذو زوجة واولاد ، فتتزوج منه . تعاشره عامين ثم تختفي من بيته ومن الحارة جميعا مخلفة وراءها ضجة وعارا واصابة في كبرياء أم عبده .

***

وفي ذات ليلة من ليالي الزمن الجاري الذي لا يتوقف اجدني وجها لوجه مع احسان . ترقص وتغني :

عومي على الميه       يابت يا شامية

وتراني فيشع من عينيها نور العرفان . أقف ذاهلا ولكنها تتلقاني ببساطة وبابتسامة مشجعة . تقبل نحوي فتأخذني من يدي الى حجرتها ثم تغلق الباب وتغرق في الضحك . وتقول لي بعد ان جلسنا :

ـ الدنيا واسعة ولكنها في النهاية كالحق .

وأتفرس في وجهها فتسألني عن امها قائلة :

ـ كيف حال ام عبده ؟

ـ عـــال .

ـ ودولت اختي ؟

ـ بكريها في المدرسة .

ـ ووالدتك واخواتك ؟

ـ بخير .

فتقول بمودة :

ـ زرني كثيرا .

وأسألها بعد تردد :

ـ كيف جئت الى هنا ؟

فتضحك وتقول ساخرة :

ـ من نفس الطريق التي جئت منها انت !

## الحكاية رقم (١١)

تقف في فناء المدرسة الابتدائية جماعات تنتظر نتيجـة القبول . انهينا مرحلة الكتاب ، وأدينا امتحان القبول ، وها نحن ننتظر اعـلان النتيجة .

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضي في تلاوة الاسماء من كشف بيده ثم يقول :

ـ ليبق منكم من سمع اسمه وليرجع الاخرون الى بيوتهم .

لم اسمع اسمي . تشيع في نفسي فرحة شاملة . أعتقد ان سقوطي هو نهاية علاقتي بالتعليم وعصي المدرسين ، وانني سأستقبل من الان فصاعدا حياة ناعمة خالية من الكدر .

ويسألني ابي عن النتيجة فأجيبه بارتياح :

ـ سقطت ورجعت الى البيت ..

ـ اخص .. تصورتك افضل مما انت ..

فأقول بسرور :

ـ لا يهم !

ـ لا يهم ؟

ـ اني اكره الكتاب وأكره سيدنا الشيخ واكره الدروس ... فالحمد لله على انني تخلصت من ذلك كله ..

فيقطب ابي متسائلا :

ـ اتظن انك ستمكث في البيت ؟

ـ نعم ، هذا افضل .

ـ لتلعب مع الأوباش في الحارة ، أليس كذلك ؟

فنظرت اليه بقلق فقال بحزم :

ـ سترجع الى الكتاب عاما آخر ، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك ..

واهم بالاحتجاج فيقول :

ـ استعد لعمر طويل من التعلم ، ستتعلم مرحلة بعد مرحلة حتى تصير رجلا محترماً ..

ولم انعم بفرحة السقوط الا ساعات !

## الحكاية رقم (١٢)

ماذا يحدث للدنيا ؟

يجتاحها طوفان ، يقلقلها زلزال ، تشتعل باطراف النيران ، تنفجر بحناجرها الهتافات ..

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان ، انهم يصرخون ، وبقبضات ايديهم يهددون ، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن في الجنون ..

واحملق فيما يجري من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدنيا ..

وتتلاطم الاحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان ، وينهمر سيل من الالفاظ الجديدة السحرية ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت الزؤام ..

الاعلام ترفرف فوق الدكاكين ، صور سعد زغلول تلصق بالجدران ، امام المسجد يظهر في شرفة المئذنة ويهتف ويخطب .

واقول لنفسي ان ما يحدث غريب ولكنه مثير ومسل شديد البهجة .

غير انني أشهد مطاردة .

يندفع اناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، يتحصنون بالاركان .

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة . تنطلق اصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات ، أنزع من مكان المراقبة الى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات تقول :

ـ انه الموت .

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شيء الا اصوات متضاربة ، وقع اقدام ، صهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب .

يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت .

ويتردد الهدير ولكن ــ هذه المرة ــ من بعيد .. ثم يسود صمت مطلق .

واقول لنفسي ان ما يحدث غريب ومزعج ومخيف .

واعرف بعض الشيء معاني الالفاظ الجديدة ، سعد زغلول ، مالطة ، السلطان ، الوطن ، وأعرف بوضوح اكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت .

وتزورنا ام عبده في غاية من الانفعال ، تحكي حكايات عن الضحايا والابطال ، وتنعي الينا علوة صبي الفران ، وتؤكد ان جياد الفرسان حرنت امام سور التكية وألقت الفرسان عن متنها ..

واقول لنفسي ان ما يحدث حلم مثير لا يصدق .

## الحكاية رقم (١٣)

مهذب ذكي العينين قصير القامة في مطلع الشباب ، قيل لي :

ــ ابن عمك صبري .

أعرف أباه ــ عمي ــ معرفة سطحية فهو لا يبرح الريف الا نادرا ، اما صبري فانه يرى القاهرة لاول مرة . واعرف ايضا من احاديث الليل ان عمي ارسله الى القاهرة ليلتحق باحدى مدارسها الثانوية بعد ان ترامت أنباء نشاطه الثوري في موطنه الى مراكز الامن .

أسأله وانا ارمقه بشغف :

ــ انت من شبان المظاهرات ويحيا سعد ؟

فيبتسم ولا يجيب .. انه يبدو اعمق من سنه .

ويقول له ابي :

ــ هذا بيتك ، وانت الان آمن ، ولكن كن على حذر .

وأقول لأبي :

ــ ولكنك يا بابا اضربت مع الموظفين ؟

فينهرني .

ــ لا تتدخل فيما لا يعنيك .

ويمارس صبري حياة تلميذ مجتهد ذي طاقة كبيرة في العمل .

غير ان القلق يلوح في عينيه الذكيتين ذات مساء فأسأله عما يقلقه فيسأل بحذر :

ــ ماذا دعاك الى السؤال ؟

ــ لست كعادتك .

فيدعوني الى المشي في الحارة . تتسكع في الحارة وفي ميدان بيت القاضي حتى يهبط الليل . ويهمس في اذني :

ــ تستطيع ولا شك ان تحمل ورقة الى هذا او ذاك من الناس ؟

ــ ولكن لماذا افعل ذلك ؟

ــ لا تفعله اذا كان يضايقك .

وأوافق ليعهد الي بمهمة أيا تكن .

وامضي لأوزع اوراقا على اصحاب الحوانيت والمارة . يتناولونها بدهشة ، يلقون عليها نظرة سريعة ، يبتسمون ثم يواصلون العمل او المشي .

وارجع اليه عند رأس الحارة فيسألني :

ــ مبسوط ؟

اعرب له عن سروري الذي لا حد له فيقول محذرا :

ــ اياك ان تخبر عمي او امرأة عمي .

ولا اعلم انني كنت أوزع منشورات سياسية الا بعد مرور فترة غير قصيرة .

## الحكاية رقم (١٤)

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزلية . من عجب آنهم يهزلون في الفترات القصيرة التي تفصل بين المصادمات الدامية . ها هـــي مظاهرة ضخمة تسوق في مقدمتها حمارا مدثرا بقماش أبيض نقش عليه بالاحمر :

« السلطان فؤاد »

ابن بلد يمتطي الحمار واضعا على رأسه قبعة بريطانية ، والهدير يصطخب :

يا فؤاد يا وش القملـــة     مين قلـك تعمل دي العملة

وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد

وأحمل لأبي خبرا من الحارة آثار خيالي فأقول له :

ــ كان اعداؤه يتجنبون النظر في عينيه وهـم يجادلونـه تفاديـا

ــ يقولون ان اسم سعد يرى منقوشا على البيض بعد خروجه من الدجاج .

فيضحك ابي ، ويضحك شخص يجالسه . ويقول الضيف عـن سعد :

ــ كان اعداؤه يتجنبون النظر في عينيه وهــم يجادلونه تفاديا للشعاع الحاد الذي ينطلق منهما .

ويطرب ابي للكلام ويتمتم :

ــ انه هدية السماء الينا :

فيقول الضيف متحمسا :

ــ انتهت سنوات النحس وبدأت أيام السعد .

ويتنهد ابي قائلا :

ــ يا اسفي على الرجل الشيخ المريض في منفاه .

فأذهل وأسأل :

ــ سعد مريض ، كيف هذا يا بابا ؟
ولا يعيرني التفاتا فأصر قائلا :
ــ سعد لا يمكن ان يمرض .
ثم بيقين أشد :
ــ لم يبق الا ان تقول انه سيموت مثل همام ابن اختي .

## الحكاية رقم (١٥)

ويزور ابي جماعة من الاصدقاء فيدور الحديث عــن الثــورة . لا حديث هذه الايام الا عن الثورة . حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة ، ولعبنا في الحارة مظاهرات وهتافات . وتصبح دوريات الانجليز منظرا مألوفا لدينا ، نمعن في الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم وتتعجب .

يدور الحديث بين الزوار عن الثورة .
ــ من يصدق هذا كله او بعضه ؟!
ــ انه الله الرحمن الرحيم .
ــ يخلق الحي من الميت .
ــ الفلاحون والعمال والطلبة والموظفون والنساء يقتلون ويقتلون.
ــ الفلاح يحمل السلاح ويتحدى الامبراطورية .
ــ انقطعت المواصلات تماما ، أصبحت مصر دويلات مستقلة !
ــ والمذابح ؟
ــ مذبحة الازهر .
ــ مذبحة أسيوط .
ــ العزيزية والبدرشين .
ــ الحسينية .

ـ لا أنا أنا ولا أنت أنت ، ليحيى سعد !

ـ اي والله ليحيى الساحر العظيم .

ـ ولكن الاموات يفوقون الحصر .

ـ احياء عند ربهم .

وينبري رجل ليقص سيرة سعد كما يعرفها ، مواقفه مع الانجليز والخديو قبل الثورة .

وألمح ابي تغرورق عيناه بالدموع .

اراقبه بذهول محتقنا بانفعال صامت وفيض من الدموع ينهمر على خدي .

## الحكاية رقم (١٦)

سلومة أول شهيد من أبناء حارتنا . حقيقة ان علوة صبي الفران اول من قتل في حارتنا ولكنه في الاصل من ابناء كفر الزغارى . وعم طلبة ـ أبو سلومة ـ بياع يسرح بعربة غزل البنات ، وكان سلومة يعاونه ، وينام على مقدم العربة اذا انهكه التعب .

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضي فينضم اليها سلومة بتلقائية دون ان ينتبه اليه ابوه . وتنقض على المظاهرة قوة انجليزية في خان جعفر وتطلق عليها النار . يصاب سلومة برصاصة في رأسه ويسقط قتيلا .

وينتشر الخبر في الحارة فيجتاحها حزن ، ويهزها الفخار والاكبار . ويقبل الناس على عم طلبة يعزونه وينثرون بين يديه لآلىء الكلمات . ورغم حزن الرجل وتهالكه فانه يمارس احساسا جديدا لم يعرفه من قبل ، يرى نفسه لاول مرة محوطة بأهل الحارة من كافة الطبقات ، يفوز باكبار

من لم يبالوا من قبل برد تحياته ، وتنهال عليه نفحات الموسرين من التجار والمعلمين .

وتكون جنازة سلومة اعظم جنـــازة تشهدها حارتنا ، تصغر الى جانبها اي جنازة سابقة من جنازات الفتوات والاعيان ورجـال الدين . سعى وراء النعش المكلل بالعلم جميع الذكور ، وحياه النساء من النوافذ والاسطح ، وانضم الى المشيعين مئات من الحواري المجاورة ، فبلغـت الحسين في ضخامة مظاهرة وجلالها .

وتصير الجنازة حديـث الناس ، ويمسي سلومـة اسما ورمزا ، ويحظى الاب الكادح المصاب بمكانة مرموقة ، وينوه المعلقون بعجائب الحياة المغيرة للقيم في لحظة من اللحظات الساحرة .

## الحكاية رقم (١٧)

استيقظ ذات صباح فأجد في بيتنا امرأة جميلة .

وتقول امي :

ـ تعال سلم على عمتك وبنت عمتك سعاد .

أسلم بحياء من يراهما لأول مرة . فالمرأة تشبه ابي حقا ، الفتـاة غاية في الجمال .

وتسألني عمتي :

ـ في أي سنة دراسية يا حبيبي ؟

ـ الثانية الابتدائية .

وأفتن بالفتاة فتملؤني بسحر لطيف واحلام عذبة .

واعرف ان عمتي جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهزها وان زفافهـا وشيك . وتشغل ايامها المعدودة بالقاهرة بالتردد مع ابـي علـى محال

الاثاث والنجارين والمنجدين .

وفي اوقات الراحة تتبدى سعاد في ثوب انيق وزينة جذابة ، تتألـق بألوان العرائس وتعبق بشذاهن .

وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض .

وتقول لي وهي تنظر الى الحارة من خصاص النافذة :

ـ حارتكم مسلية جدا .

ـ تعالي أفرجك على أزقتها والقبو والتكية .

تتجاهل دعوتي . تتسلل نظراتي الى عنقها وأسفل ساقيها ، أتوق الى تلاق غامض واشباع مبهم ومغامرة مجهولة ، اريد ان المس خدهـا المتورد ، لا اريد ان اصدق انها سترحل بعد ايام ، وان قلبي لن يجد من يؤنسه .

واستجمع شجاعتي وأقول :

ـ اتعرفين .

وينقطع الصوت والتفكير فتتساءل هي بنبرة محرضة على مواصلة الحديث :

ـ أتعرفين ؟

ألوذ بالصمت فتسألني :

ـ لماذا تنظر الي هكذا ؟

ـ أنـا !؟

ـ نعم ، رأيتك ، لا تنكر .

وتضحك ضحكة قصيرة ثم تقول :

ـ انت ولد شقي .

وينقبض قلبي من الشعور بالذنب .

***

وأرى امي وعمتي ذات يوم وهما يتناوبان النظـر في صـــورة فوتوغرافية لسعاد . وتقول عمتي :

ــ أصر العريس على رؤية الصورة .

ــ وأبوها وافق ؟

ــ يعني .

ويترامى الينا صوت ابي من حجرته :

ــ تصرف غير لائق !

فتقول امي :

ــ الزمان غير الزمان !

وتقول عمتي :

ــ ما هي الا صورة ، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أبي بنبرة لا تخلو من احتجاج :

ــ على خيرة اللــه .

أتابع الحديث بحزن خفي . تطالعني من ثناياه نذر الفراق الابدي ووجه الكآبة في الافق .

وتمر ايام الزيارة بسرعة فائقة وانا عاجز عن ايقافها .

وتجيء لحظة الوداع .

وأرنو الى خد سعاد المورد كرغيف خارج لتوه من الفرن .

وتذهب الاسرة كما ذهب آل بشير من قبل .

وتضحك امي من لوعتي دون ان تفطن الى عمق اشجاني .

## الحكاية رقم (١٨)

الفرحة ترقص في القلوب ، والنشوة تشتعل في النفوس يـــوم عودة سعد .

ابي يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقــة ، زر طربوشه مفقود ، عقدة رباط عنقه غائصة في ثنية الياقة ، جاكتته تنضح بالعــرق والتراب ، صوته مبحوح كأنه سعل دهرا ، ولكن عينيه تتألقان بنــور ظافر . يستلقي على الكنبة ويقول :

ـ هتفت حتى ضاع صوتي ، نسيت نفسي تماما .

ثم بارتياح عميق :

ـ تجمعت الدنيا كلها في ميدان السيدة ، سبحانك يا ربي ما اكثر عبادك !

ويجتاح الحارة احساس غامر بالنصر ، ويعتقد كل قلب ان الحرية تدق الابواب . وتطبق المظاهرات على حينا لا تريد ان تنتهي . سعــد . سعد . يحيا سعد . وتلهب حرارة الهتافات خيالي ، وآسف علــى ان المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التي لا مخرج لهــا من طرفها الآخر الا الممر الضيق المحاذي للتكية والمفضي الى القرافة .

وأسأل امي :

ـ سيرحل الانجليز ؟

فتجيبني بيقين :

ـ الى غير رجعة .

وفي الليل تحتفل حارتنا بعــودة الزعيم احتفــالا خاصا . تضــاء الكلوبات في هامات الدكاكين ، ترتفــع الاعــلام ، تدوي الزغاريد . وتتطوع العالمة الماظية باحياء الليلة . تقيم سدتها في الوسط أمــام الوكالة يحف بها تختها ، ترص الكراسي أمامها ، وعلى انغــام العود والقانون والناي والرق ، يرقص الرجال ، وتغني هي :

ليالي الانس عادت بالليالي

وتغني أيضا :

يا بلح « زغلول » يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها :

يا واد يا ألنبي كان جرى لك ايه يا بن المره

جه الاستقلال غصبـــا عنك وعن انجلتره

وتكتظ البوظة بالسكارى وتشتعل الغرز بنيران المجامر ، وحتى المجاذيب والمتشردون واللصوص يسهرون ويفرحون . ويشارك عم طلبة ابو الشهيد في الحفل ، والشيخ لبيب يحضره .

وأسهر أنا في النافذة ، وقوى مجهولة تشحن قلبي الصغير بحيوية سحرية .

## الحكاية رقم (١٩)

ابي ينظر الي نظرة غامضة ويسألني :

ـــ ماذا فعلت ؟

فأجيبه بسرور وزهو :

ـــ اشتركت في المظاهرة الكبرى .

ـــ كان يمكن ان تدوسك الاقدام .

ـــ كان الصغار كثيرين .

ويداري ابي ابتسامة ويسألني بنبرة ممتحن :

ـــ الان سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلم تضربون ؟

ـــ اضربنا لتأييده في موقفه ضد الملك .

ـــ من قال لك ذلك ؟

ـــ رئيس الطلبة ، قال ان سعد زغلول قدم استقالته احتجاجا على موقف الملك من الدستور ، واننا ذاهبون لتأييد الزعيم .

ـ هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك ؟

وأتوقف عن الاسترسال مرتبكا فيضحك ابي ولكني أبادره :

ـ نحن مع سعد وضد الملك !

ـ عظيم ، وماذا كان هتافكم في عابدين ؟

ـ سعد أو الثورة .

ـ ما معنى ذلك ؟

وأتفكر قليلا ثم أقول :

ـ معناه واسع ، سعد أو الثورة ..

وهو يبتسم :

ـ عظيم ، ومن الذي انتصر ؟

ـ سعد ، وهتفنا : عاش الملك ويحيا سعد .

ثم اقول بحماس :

ـ الاشتراك في المظاهرة امتع من أي شيء في الدنيا .

فيبتسم ابي ويقول :

ـ بشرط الا يشترك فيها الانجليز !

## الحكاية رقم (٢٠)

يحيى مدكور أمهر لاعب كرة في مدرستنا ، وصديقي المفضل في المدرسة الابتدائية .

أجده يوما يقرأ كتابا في الفسحة فأسأله :

ـ ما هذا ؟

ـ ابن جونسون .. الحلقة الاولى من مسلسلة بوليسية جديدة ..

ويعيرني الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم اجد مثلها من قبل .

وأواظب على قراءة السلسلة ، ثم انتقل من سلسلة الى اخرى ، ومـن كتاب الى آخر ، ثم أدمن القراءة .

وأصير مع الزمن بطلا من ابطال القراءة ، اما صديقي فيهجرهـا سريعا ثم يتربع على عرش الكرة .

## الحكاية رقم (٢١)

ابراهيم توفيق مقترن في ذاكرتي بالتهريج والتحدي ، خفيف الروح نصف مجنون . بطل هواة لعب الكرة « الزلط » في فناء المدرسة . ننتقي عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة في حجم الجوزة لتقـوم مقـام الكرة ، نخوض بهـا مباراة يومية في فسحة بعـد الغداء . والمباراة « الزلطية » ممنوعة رسميا ولكن يغضى عنها عادة ، وتمارس بعنف في اثناء تناول الضباط طعامهم ، ويكف عنها فورا عند مرور الناظر ، أما عواقبها الوخيمة على الاحذية فيدفع ثمنها الآباء .

وفي الفسحة القصيرة يضغط ابراهيم توفيق طربوشه حتى يصير مثل طاقية ، ويرتدي جاكتته بالمقلوب ، ويحاكي مشيـة شارلي شابلن ذهابا وايابا على ايقاع تصفيقنا ، ثم يختم لعبه بانشاد مونولوج :

يا عـديم الخال يا قليـل المال

رفعتك محال محال في زمن الانذال

ويوما يتباهى بالمقالب التي يدبرها لزوج امه فيقول له أحدنا :

ــ أتحداك ان تأكل قرن فلفل حامي !

والتحدي يستفزه لمصارعة المحال فيهتف :

ــ آكل عشرة !

ويتراهن فريقان . نبتاع من بياع الفول عشرة قرون فلفل حامية ،

وتحلقناه في حماس ..

يتناول ابراهيم القرن الاول ويأكله مبديا ثباتا واستهانة ..

ويتناول الثاني محافظا على ثباته واستهانته ..

ويتناول الثالث فلا يتغير من مظهره شيء الا انه ازدرد ريقه بصورة ملموسة .

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة .

ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوة ارادته ويسعل بشيء من العنف .

وعقب تناول السادس يبدو وكأنه يقاوم عدوا مجهولا اندس في أعماقه ، وتفيض عيناه بالدمع ..

وهو يأكل السابع يسيل الماء من انفه ويصطبغ انفه بحمرة عميقة ..

ويصيح بعض ضعاف القلوب :

ـ اوقفوا الرهان ..

ولكنه يرفض بحركة من رأسه دون ان ينبس وكأنما لا يستطيع النطق .

ويلتقي ماء عينيه بماء انفه في مجرى ينحدر على ذقنه وعنقه وينتابه سعال متقطع .

ويستحيل وجهه قرمزيا وتنتفخ شفتاه ولكنه يلتهم القرون حتى آخرها وسط التهليل والتصفيق ، ويربح ..

ولكنه لعله لا يشعر للنصر بلذة ، انه صامت محتقن زائغ البصر ، وعلى هذه الحال تدخل حصة الدين . والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الاهمال والشقاوة ، يقول له :

ـ ابراهيم توفيق ، سمع تبارك الذي ..

ويلبث ابراهيم صامتا مغمورا بهمومه الخفية ، فيصيح به الشيخ :
ـ قف يا ولد وسمع ..

ولكن ابراهيم لا يتحرك على حين تصدر من الاركان همهمة يظنها الشيخ لعبة متفقا عليها فيصيح :

ـ الادب يا اولاد الكلاب ، قم يا مجرم .. قم لا بارك الله فيك ولا فيمن انجبك ..

ويقترب الشيخ منه في مجلسه في آخر الحجرة فيهوله منظر وجهه فيتوقف متسائلا :

ـ ماذا بك ؟ .. لماذا تبكي ؟

عند ذاك يتكلم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجب ويقول :

ـ أعوذ بالله . يا اولاد الأبالسة . كلكم مجرم وابن مجرم .

ويذهب بابراهيم الى الخارج ليسعف في حجرة الطبيب .

ولكن ابراهيم لا يكف ابدا عن التهريج والتحدي .

## الحكاية رقم (٢٢)

هاشم زايد يجلس الى جانبي على قمطر واحد .

طويل القامة مفتول العضلات ولكنه وديع خجول وطيب وحسن السلوك . أمه ارملة غنية تملك بيوت زقاق برمته وشريكة اكبر عطار في الحارة ، لذلك نخصه بنظرة تجمع بين الاعجاب والحسد . تتهادى اليه نكات ابراهيم توفيق من وراء فلا يملك الا ان يضحك فيراه المدرس دون الفاعل الحقيقي فينال جزاءه صفعة او لكمة او ركلة باستسلام التلميذ المؤدب .

ويفشل هاشم في المدرسة فيتركها ، وتموت امه فيصير من أكبر

اعيان الحارة في لحظة واحدة . وتفرق بيننا السبل . اراه أحيانا مستقلا الكارتة او جالسا في ملابسه البلدية وسط هالة من المريدين . انه يتحول الى شخصية غريبة فأتجنب حتى مصافحته . انه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته في العدوان وفرض ارادته على العباد . كيف يتحول الصبي الخجول الطيب الى وحش شرس ؟ .. اني اتفكر واتخيل دون جدوى .

لا يمر يوم في حياته بلا معركة ، اللكمة عنده اسرع من الكلمة ، والنبوت مفضل على اللكمة ، ويحل بالمكان فيتجنبه الناس كأنه وباء ..

لو امتد زمن الفتوات الى زمانه لفرض نفسه فتوة ، وهو يزعج القسم كما يزعج الحارة ، ويبيت اياما بسجن النقطة ولكنه يرشو المخبرين وشيخ الحارة .

تحف به دائما بطانة ولكن لا صديق له ، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يعرف عنه اي ولع بالنساء . وعلاقته بذكرى امه مثيرة محيرة ، يتذكرها أحيانا بحزن عميق ويتنزل على روحها الرحمات ، واحيانا ينتقدها بمرارة وسخرية ، ويقول :

ــ كانت بخيلة شحيحة ، تهمل نفسها لحد القذارة ، وتعامل الخدم بقسوة جنونية ..

ويغالي مرة في الحملة عليها ثم ــ فجأة ــ يجهش في البكاء ، ينسى نفسه تماما ويجهش في البكاء ، ثم ينتبه لضعفه فيضحك ، ولكنه يصب غضبه على جميع من شهد دموعه ، ويبدو انه يضمر لهم السوء ..

ويختفي هاشم زايد من الحارة ومن البيت .

وتطول غيبته حتى يذوب رويدا في ظلمة النسيان .

وتسمع من يقول انه هاجر ، وتسمع من يهمس بانه قتل واخفيت جثته ..

## الحكاية رقم (٢٣)

ذات صباح تدهمني اليقظة بعنف . استيقظ مجذوبا من عالم الغيب بقبضة مبهمة . يلفني تيار من الطنين . أنصت فيقف شعر رأسي من ترقب الشر . اصوات بكاء تتسلل الي من الصالة . تغرز افكار السوء اسنانها في لحمي ، ويتخايل لعيني شبح الموت .

أثب من الفراش مندفعا نحو الباب المغلق ، اتردد لحظة ثم افتحه بشدة لأواجه المجهول .

أرى ابي جالسا ، امي مستندة الى الكونصول ، الخادمة واقفة عند الباب ، الجميع يبكون ..

وتراني امي فتقبل علي وهي تقول :

ــ افزعناك . لا تنزعج يا بني .

أتساءل بريق جاف :

ــ ماذا ؟ ..

فتهمس في أذني بنبرة مختنقة :

ــ سعد زغلول ... البقية في حياتك !

فأهتف من اعماقي :

ــ سعد !

وأتراجع الى حجرتي .

وتتجسد الكآبة في كل منظر .

## الحكاية رقم (٢٤)

القطة الام مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم مغمضات الاعين في حضنها . انا وحيد في الحجرة اتابع المنظر باهتمام.

وفجأة تتردد انفاس على كثب مني فألتفت فأرى سنية . هي بكرية جارنا ساعي البريد ، دقيقة القسمات خفيفة الروح ، مليئة بالحيوية والمرح ، تكبرني ببضعة اعوام . تنظر الى القطة بشغف وتهمس :

ـ ما اجملها !

أوافق بايماءة من راسي فتقول :

ـ احب القطط ، وأنت ؟

اجيب وشعوري بتوحدنا يغمرني :

ـ وانا ..

وتقترب لترى بوضوح اكثر فاحس مس صدرها لكتفي . تواصل الحديث فلا اتابعها . اني اضطرم فيلتهم اللهيب حيائي ، استدير فاضمها الى صدري ، وتبدأ علاقة وطيدة ، مفعمة من ناحيتي بالسرور والندم .

ازداد بها معرفة ، جميلة جسورة بقدر ما هي حريصة . رغم سكراتها المنغومة فبيننا حدود لا يمكن تخطيها . ألبي اشارتها ، اهرع الى ظلها ، اما هي فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة ، تجذبني الى حديقة الورد ثم تضرم فيها نيران الجحيم . لا نعرف السكينة ولا الامان ، نقطف الثمار في رعدة من الرقباء ، نجري في حومة الحب خطافين نشالين مجانين ، نراوح بين الصراع المكتوم والنعاس المفتوح العينين ، وتنقلب الحياة اغنية مجنونة تنفجر بالعذوبة والعذاب .

وتتزوج سنية عقب عامين من حبنا .

ونلتقي بعد اعوام واعوام من زواجها .

اجدها مفرطة في البدانة ، غافية النظرة ، رزينة جليلة ، راسخة الاستقرار والوقار . نتصافح ونتبادل حديثا روتينيا عن الاحوال والناس لا بسمة ذات معنى ولا اشارة الى عهد انقضى . سيدة مصونة ورمز حي للامومة ، ومثال للتدين والورع .

وأتخطى الحاضر راجعا الى عهد صباها النضير ، وهي فراشة متعددة الالوان ، تفاحة طازجة ، وردة فواحة ، ينبوع متدفق .

تلك الايام السعيدة .

## الحكاية رقم (٢٥)

فتحية ، الاخت الصغرى لسنية ، تماثلني في العمر .

مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق .

نظراتنا تتسلل في استحياء فيستحوذ علي امل خلاب . أمد يدي فاقبض على راحتها فتسحبها بلطف ، وبرقة تقول لي :

ــ لا احب العبث .

وأضيق بجديتها فاقول :

ــ انك لا تعرفين الحب .

فتقول بأسى :

ــ انت الذي لا تعرفه .

وتقول معاتبة :

ــ أثبت لي انك تعرفه مثلما أعرفه .

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق ، ويصرفني اليأس فأتعزى بالزهد ، أمضي مصمما على النسيان ، ولكن ترجعني الاشواق او رسالة عتاب او لقاء غير متوقع فأجد نفسي مرة اخرى حيال قلب محب وعاطفة طاهرة وارادة لا تلين .

وطريقي شاقة طويلة ، وفتاتي محبوبة كثيرة الخطاب . يقـول لها ابوها :

ــ معنى الرفض ان تنتظري عشرة اعوام .

ثم يقول بحزم :

ـ القلوب تتغير في عشرة ايام .

ويصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف اليه كسيرة القلب . وتنجب اطفالا ، وترعى بيتا يعد مثالا للحياة الزوجية الموفقة .

وتغيب عن عيني وخيالي دهرا طويلا .

والتقي بها في مأتم وهي في الستين من عمرها ، أرملة منذ عشرة اعوام ، فنتصافح وتطالعني بنظرة صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة . يتحرك في اعماقي شيء غامض . تجتاحني موجة من التذكر والاسى ، وشعور فاضح بطول الزمن المطروح ورائي .

واعلم بانها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم عجوز . وأجدني أحادثها رغم كل شيء بجرأة مستمدة من ضآلة ما يتبقى من العمر ، وأعزم على زيارتها . واتخيل واسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبني ، ثم ابتهل في خشوع الى أشجان الوداع .

## الحكاية رقم (٢٦)

ست نجية امرأة وحيدة .

عهدي بها وحيدة دائما ، في بيتها وحيدة ، مقطوعة من شجرة ، يرد اسمها بلا لقب ، لا اب ولا ام ولا اخ ولا اخت ، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية .

صورتها لا تنسى ، قصيرة جدا ، مطبوعة بطابع كساح يتجلى في تقوس ساقيها وبروز ذقنها ، ولها انف كبير مثل اذن حمار ، دميمة ولكنها غير منفرة لخفة روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس .

تجيء معها في زيارتها لنا بالمرح والضحك ، فلا نهاية لنوادرها

وقفشاتها ، واتصورها دائما اسعد الناس .

بيتها مزرعة قطط وكلاب ، تولد وتنشأ في عزها مكرمة مدللة ، لكل اسمه وخدماته الغذائية والصحية والرياضية . هي مولعة بهن وهن مولعات بها ، وفي رحابها المترع بالرحمة والسخاء تنمحي الخصومة الغريزية بين الكلاب والقطط فهن يعشن في اخاء ومودة .

تسألها امي :

ــ لم نرك من مدة يا ست نجية ؟

فتقول :

ــ كانت نرجس متوعكة المزاج .

أو تقول :

ــ كانت بركة تلد .

ودائما تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها ، وتحكي عن علاقتهما الخاصة باعتزاز وتنوه بنوادره .

تقول بجدية :

ــ امس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهي قبيل الفجر ..

أو تقول :

ــ وجدت بلاص العسل فارغا فقلت له بالهنا والشفا ..

بالصدق والجدية تتكلم ، لعلها لا تتخلى عن المزاح الا حين الحديث عن اخيها الخفي ..

وتزعم ايضا ان الكلاب والقطط تخاطبها بلغاتها الخاصة وانها تفهمها ، ولكي تثبت صحة كلامها تمضي في محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق في الضحك .

ولها خبرة راسخة في قراءة الفنجان والورق وتفسير الاحلام ، وتتهم احيانا بممارسة السحر والشبشبة حتى ان أم عبده لعنتها جهرا في

الحارة عقب اختفاء ابنتها احسان ، ولكن طيبتها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس ..

لا يكاد يطرق بابها احد ، لكثرة الكلاب يتجنب الناس زيارتها ، حتى الخدم لا يطيقون خدمتها ، فهي وحيدة في بيتها ولكن تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والعفريت المؤاخي ..

تقول لها امي وهي بصدد الحديث عن وحدتها :

ــ على الانسان ان يعمل حسابه لساعة الاجل .

فتجيبها جادة وهي تبتسم :

ــ ستنبح الكلاب حول جثتي وتموء القطط ، ويحضر اخي ليغمض عيني ، ثم يفعل الله ما يشاء .

## الحكاية رقم (٣٧)

تقول ضيفة لامي :

ــ نظلة ، الله يسامحها !

فتسأل امي عن الاخبار فتقول الضيفة :

ــ ما زالت بالجدع حتى اوقعته فتزوجها ، رعاها وجعلها من اسعد نسوان الحارة ، وها هي الفاجرة تهجره عندما أعجزه المرض ..

وتسأل أمي عن حاله فتواصل المرأة :

ــ طريح الفراش ، وحيد ، يبصق دما ويسعل حتى تنخلع ضلوعه ، يتمنى الموت ، ولما ازوره يقول لي : « انظري يا امرأة خالي ما فعلته نظلة » فأشجعه وأواسيه وقلبي يتقطع ..

واتخيل انا المريض والدم والمرأة الفاجرة .

ويمضي زمن ثم تزور الضيفة امي وتقول :

ـ شوفي العجائب ، لم تكد تمر اشهر على وفـاة المرحوم حسن حتى اوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوجها ..

فتهتف امي :

ـ نظلة ؟ !

ـ ومن غيرها يفعل ذلـك ؟ الهي ينتقم منـك يا نظـلة يا بنـت أمونة ..

واتخيل انا الميت والعاشق والفاجرة .

ويمضي زمن . ها انا اذاكر دروسي في حجرتي فيترامى الي صوت امي وهي ترحب بضيفة قائلة :

ـ اهلا بك يا ست نظلة ..

واتساءل باهتمام ترى أهي الفاجرة ؟

وأتسلل الى الصالة محتميا بظلمتها وارسل الطـرف الى حجـرة الاستقبال ، فأرى امرأة ـ بين الاربعين والخمسين ـ بضـة الجسم حسنة التكوين أنيقة الملبس . أعترف بانها امرأة مثيرة .. وانها تستحق ان تعشق . وأعرف عنها معلومات جديدة ، منها ان زوجها الثاني ـ خليل توفي ايضا بعد أن أنجبت منه ولدا، وانها تركت شقتها قبيل القبو لتقيم في شقة صغيرة في بيت قريب منا ، وادرك ايضا ان امي لا ترحب فـي اعماقها بزيارتها لنا . وأقول :

ـ انها شريرة !

ولكن امي تقول بحذر :

ـ الله وحده هو المطلع على الافئدة ..

ـ تعطفين عليها رغم انك لا ترحبين بها .

ـ سمعت الكثير ولكني أرى امرأة ضعيفة واما لولد لا رجـل لها ولا مال ..

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة . وتخيم علـــي ذكريات المرحومين حسن وخليل ولكني لا أبالي . واشعر بانني مقبل على مغامرة اخطر من جميع ما مر بي من مغامرات . ولكن القصة لم تبدأ ..

ذات صباح تهز حارتنا صرخة مدوية .

ينتشر خبر بان جارة ألقت على وجه نظلة ماء نـار متهمة اياهـا بمحاولة خطف زوجها .

تفقد نظلة سحرها الى الابد .

تضطر الى العمل في حمام الحارة .

يشتد بي الحزن فترة من الزمن وأردد ما سبق ان قالته امي :

ــ الله وحده هو المطلع على الافئدة ..

## الحكاية رقم (٢٨)

يزورنا كثيرا .

أحبه لانه يكاد ان يكون صورة متقنة لأبي . من احاديثه المكررة في الحاح ابدي ان يخاطب ابي قائلا :

ــ أيرضيك حالي هذا يا خالي ؟

فيقول له أبي :

ــ يا محسن ، اعتمد على الله وعلى نفسك ..

ــ يؤلمني انني غني بما املك من مال في الاوقاف ولكنني عاجز عن صرف مليم واحد منه .

ــ هذا حال كثير من المستحقين ..

ويضطر الى ان يعمل كاتبا بثلاثة جنيهات شهريا في وكالة الاخشاب بحارتنا . وتحاصره ظروفه القاسية فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة

العاطلة من الجمال والمال . ويتقدم به العمر دون ان ينجب فيمضي حياته متحسرا . وتضرع زوجته الى الله الا يحل عقدة الوقف ، وتقول لامي :

ــ لولا الفقر لفجر ، لولا الفقر لطردني ..

لا حديث له الا الوقف ، الوقف يا خالي ، الوقف يا امرأة خالي ، وأسمعه يردد بحرارة :

ــ يا رب ، نفسي في لقمة حلوة ومسكن نظيف وملبس لائـــق وأنثى ، أنثى حقيقية لا تمثال خشبي في هيئة امرأة ، يا رب نفسي في ولد او حتى في بنت !

وتتقدم به السن اكثر ، وتدمع عيناه احيانا وهو يرثي نفسه حتى ينال مني التأثر .

وتندفع الاحداث فتغير من ايقاع الزمن ورؤيته وتنحل عقـــدة الوقف !

ويرقص ابن عمتي من الفرح فأسأله :

ــ ما مقدار مال البدل الذي سيصرف لك ؟

فيقول بزهو :

ــ أربعون الفا من الجنيهات ..

يدور رأسي . أتفرس في وجهه بعجب . انه يدنو مـــن السبعين ، ابيض الرأس ، ضعيف البصر ، هزيل الجسد ، ليس في فيه سنـــة ولا ضرس . أسأله :

ــ ماذا ستصنع بثروتك ؟

فيقول متهللا :

ــ قلبي يحدثني بانني سأمرح في نعمته عز وجل ..

ثم يستطرد :

ــ سأشتري بيـــت عيوشة الحكيمة ، وأركب طاقـــم اسنان ،

واتزوج ..

ـ تتزوج ؟

ـ وسانجب ايضا ، سوف ترى ..

ويجدد نفسه بتصميم كما يجدد الحياة من حوله . أبقى على سوسن ولكنه يتزوج من توحيدة بنت بياع الطرشي وهي بنـــت جميلة دون العشرين .

ويخبرني ذات يوم قائلا :

ـ ولي العهد يتكون باذن الرحمن ..

ويفرط في الطعام بنهم لا يناسب سنه ، ثم يلزم الفراش عقب ستة اشهر من الزواج ..

وأعوده فيقول لي بصوت خافت :

ـ لست نادما ، أبدا ، الحمد لله رب العالمين ..

وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة .

## الحكاية رقم (٢٩)

علي البنان صاحب محل البن في حارتنا صديق . يموت ابوه فيحل مكانه وهو في طور المراهقة .

وذات يوم يسألني وانا اجالسه في المحل :

ـ هل تعرف أنسية بنت أمينة الفرانة ؟

فأجيبه ورائحة البن الصارمة تسيطر على حواسي :

ـ اعرفها طبعا ، حارتنا كلها تعرفها ..

ـ ما رأيك فيها ؟

ـ بنت فائقة الجمال وهي تشارك امها في العمل ..

ـــ ماذا تعرف عن اخلاقها ؟

فأضحك قائلا :

ـــ ما اكثر ما يقال !

ـــ ولكنني متأكد من الكثير ..

ويحكم العمامة فوق رأسه . ويقول :

ـــ اعرف انها سقطت اول ما سقطت مع حمدان صبي الفران ..

أهز رأسي موافقا فيمضي هو قائلا بنبرة اعترافية ثقيلة :

ـــ ضبطت ايضا مع الحنفي صبي محل الطرشي تحت القبو ..

ـــ انك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من الضروري ..

ـــ وقيل كلام ايضا عن علاقتها بخفير الدرك !

فأسأله ضاحكا :

ـــ هل تنوي كتابة سيرة لها ؟

ـــ وايضا مع حسنين السقا !

فأغرق في الضحك واقول :

ـــ انه لسلوك يستحق التأمل .

ـــ ولعل ما خفي اعظم .

ـــ من يدري فلعلها ليست الوحيدة في حارتنا !

فيتنهد قائلا :

ـــ ولكنها الوحيدة التي احبها !

فأخرج دفعة واحدة من جو المرح وأسأله :

ـــ اتريد ان تنضم الى طابور العشاق ؟

فينظر الي طويلا ثم يقول :

ـــ كلا ، لقد قررت ان أتزوجها !

ـــ لا اصدق ..

فيقول بجد وتجهم :
ــ انه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه ، ولا يهمني مـــا يقــال !
وينفذ علي البنان قراره .

## الحكاية رقم (٣٠)

يشب بطريق الحموي فيجد نفسه متزوجا .
كان أبوه مقاول بناء اميا فاراد ان يفرح باخر العنقود في حياتــه فاختار له بنتا وزوجه منها وهو تلميذ في الرابعة عشرة من عمره .
يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب اقرانه المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .
وينجح « بطريق » في حياته المدرسية ويتفوق فيكمل تعليمــه العالي ثم يبعث الى انجلترا عامين . وعقب عودته يتعذر عليه التوافــق مع ماضيه ، زوجته خاصة ، يتنافران في كل شــــيء ، يضيق بجهلهــا وخرافتها ، يتهاوى في الغربة والفشل ، ويقول لخاصته :
ــ لا يمكن ان تمضي الحياة هكذا ..
ويتخذ قرارا حاسما وقاسيا ، من خلال معاناة طويلة ، فيطلقها .
ويلهج كل لسان في حارتنا بلعنه ومروقه ، ولكنه يلقى المد المعادي ببرود ، بل ويتحداه اكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية ، يزعم هو انها فرنسية ، ويصر اهل حارتنا على انها رومية من بين السورين .
ويذهبان ويجيئان معا وهي تشع سفورا ونورا ، ترمقهما الاعين بازدراء واستنكار ، ويترحم المترحمون على المعلم الحموي .
وتتطاير تساؤلات محرجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطهـا

بالرجال ، وما يقال عن ادمانها الخمر ، وعن صحة عقيدتها الدينية ، هل يعتبر اسلامها حقيقيا ؟ ، هل تنشيء ابناءها نشأة اسلامية سوية ؟

يعاني بطريق الحموي ذلك كله ويتصدى له بما يستطيع من قوة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهب عليه بلا رحمة ، ها هي زوجته تضيق بالحارة وأهلها ، وعاداته الاصيلة تتعرض لمؤاخذتها وسخريتها ، وهو كلما تهاون في حق طولب بالمزيد من الاستسلام ، حتى يسلم في النهاية بانه غارق في التعاسة حتى أذنيه .

ويقال له :

ــ طلقها وامرك لله ..

ولكنه يجيب باصرار :

ــ محال ان اسلم بالهزيمة ..

اما هي فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنه يرفضه باباء .

واذا بها تهجره ذات يوم فتغادر الحارة والوطن .

وتمضي الاعوام وبطريق الحموي اعزب لا يفكر في الزواج .

يقترح عليه اخوته ان يرد زوجته الاولى فيقول ساخطا :

ــ هذا سخف !

ــ هل تعتزم استرداد الثانية ؟

ــ انه الجنون نفسه .

ثم يقول برزانة وتأمل :

ــ لا بد من الزواج ، وعاجلا ايضا ، لم تضع التجربة هباء ، فاني على الاقل الان اعرف ما أريد ..

## الحكاية رقم (٣١)

من قصص الحب المؤثرة في حارتنا قصة سيدة كريم .

ينشأ حب عفيف مستور في خفاء بينها وبين ادريس القاضي ابن الجيران ، رغم التكتم والحياء تفضحهما النظرات واحوال العاشقين . ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرس اللغة العربية وعم حسنين القاضي بياع الحلوى . أدب ابنك ، ابني مؤدب ، كلمة من هنا وكلمة من هنا ، فيوشك الكلام ان يتحول الى فعل لولا تدخل اهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحد الاعين فيعاني العاشقان في صمت وقهر . وعندما ينتهي ادريس من المرحلة الثانوية يقنع اباه بأن يخطب له سيدة ، فيمضي الرجل على مضض الى الشيخ كريم طالبا يد ابنته ، ولكن الشيخ يقول له بجفاء :

ــ ابنك تلميذ وابنتي لا يمكن ان تنتظره ..

ثم يقول الشيخ لبعض خلصائه :

ــ كيف يطمع بمصاهرتي ذلك البياع الحقير ؟ !

ويتقدم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيدة .

ولكن سيدة ترفضه ! . ليس الرفض بالامر الهين ولا المالوف ، انه في الواقع ثورة غير متوقعة أذهلت الشيخ والجيران ، وزلزلت الاسرة بالغضب والعنف والتأديب ، ولكن سيدة تصر على الرفض ، وتصارح اباها بانها تمارس حقها الديني !

وكالعادة المرذولة في حارتنا تغمغم الالسنة بالشائعات والشكوك وتختلق الاوهام ، ويتناهى ذلك الى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقي درسه في الفصل .

وتتحمل سيدة مسؤولية موت ابيها امام الاسرة والناس . تصبح

ملعونة شؤما متهمة متجنبة كالمرض المعدي .

وتتزحزح الاعوام فلا يتقدم لها خاطب .

وينجح ادريس في دراسته العالية فيتقدم الى عم حبيبته طالبا يدها !.. ولكن لا يلقى الا الرفض والتجهم ، حتى الام لا توافق .

وتمر الاعوام ، ثقيلة عند المعاناة ، خفيفة لدى العد والاحصاء ، سيدة شبه سجينة لا يطلبها أحد ، وادريس موظف يثير التساؤلات باعراضه عن الزواج . ولا يشك احد من المقربين اليها او المقربين اليه في صمود الحب واصراره وتحديه المتواصل لكافة العراقيل .

ويندب ادريس للعمل في بعض البلاد العربية وتنقطع اخباره أعواما ، على حين تجاوز سيدة ربيع الشباب ويغيض رونق صباها وتتلبسها صورة تعاسة مجسدة .

ويرجع ادريس من غربته رجلا في منتصف الحلقة الخامسة . لم يعد احد يذكر قصته ، ولم تعد القصة تثير أي اهتمام عند من يتذكرونها . وتعرف حقيقة غير مألوفة في حارتنا وهي ان ادريس ما يزال أعزب ، لم يدخل دنيا ولم يمارس ابوة .

ويمضي ادريس الى ام سيدة يطلب يد ابنتها !

ويدهش كل من يعلم بالخبر معلقا عليه بان سيدة لم تعد عروسا تسر الحبيب .

ويتم الزواج متوجا حياة منصهرة بالعذاب والاصرار والوفاء .

## الحكاية رقم (٣٢)

سنان شلبي يعمل في مطحن الغلال فيما يلي السبيل القديم . تلوح منه نظرة نحو النافذة في البيت القائم امام المطحن فيلمح وجها أسر

فؤاده وسيطر على اقداره . يأسر فؤاده ويستحوذ على ارادته بقوة لم يكن يتصور وجودها بحال . وقال لنفسه : « لقد جننت يا سنان وما كان قد كان » .

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكن ام سعد هي التي تتصدى للمعاملة والتسوق ، وهي امرأة معروفة في الحارة . والعلاقة بين ام سعد والجميلة غامضة ، عرضة لشتى الاحتمالات ، فالاسرة لا تزور ولا تزار ، فمن يكون سعد ؟، أين هو ؟، والمرأة أهي ام الجميلة ؟، قريبتها ؟، خادمتها ؟ ثم تنتشر اقوال تسيء ولا تسر .

يقول سنان شلبي :

ـ اريدها ، اني مجنون بها ، بالحلال او بالحرام اريدها ، ولو دفعت حياتي الغالية ثمنا لها ..

ويوثق سنان علاقته بام سعد في ترددها الدوري على المطحن . ويلمح لها عن رغبته الخيالية ولكنها تتجاهله وتشجعه في آن فينفحها بالهدايا الصغيرة التي يطيقها من اللبان والحنتيت والسكر ، وعند ذاك تقول له :

ـ الجوهرة غالية وانت رجل على قد حالك !

فيقبض الفقر قلبه ولكن الجنون يبسطه فيقول :

ـ ربنا يقدرنا .

ويدرك لتوه ان الجميلة تحترف الحب ولكن ذلك لا يثنيه عن سعيه فان جنون العشق يتسلط على ارادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختيارا او مجالا للتردد .

وتقول له ام سعد :

ـ الامر ليس يسيرا ، يوجد حراس لا تراهم ، وغاية ما استطيعه ان ادلك على الطريق ..

وتمد له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنها تردها باباء ولا تقبل باقل من عشرة قروش او عشر اجر سنان في شهر كامل . وتقول له :

ـــ اتعرف المعلم حلمبوحة ؟.. قل له انك حاضر من طرفي ، انه راعيها وولي امرها وهو الذي جاء بها الى حارتنا من المجهول .

فيقول سنان بضيق :

ـــ ظننتك ستوصلينني بغير وسيط ..

ـــ لا املك الا ان ادلك على الطريق ..

ويذهب سنان الى حلمبوحة في دكانه الصغير الذي يبيع فيه الدخان والمنزول . يجده كما يعهده عجوزا أعمش جاف الخلق فيحييه ويقول له همسا :

ـــ اني قادم من طرف ام سعد .

فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم :

ـــ جنيه مصري !

فيقول سنان بارتياع :

ـــ أنه مبلغ جسيم يا معلم ..

فيعرض عنه قائلا :

ـــ وفر نقودك واذهب لحالك ..

لا شيء يمكن ان يثني سنان عن مطمحه . انه يبيع خاتمه الفضي الموروث عن ابيه بجنيه ويهبه لحلمبوحة مسلما امـــره للمقادر . يتفحص الرجل الجنيه ، يدسه في جيبه ، ثم يقول لسنان :

ـــ لم يبق الا هريدي الحملاوي ، تعرفه ؟

يغوص قلب سنان في صدره ويسأله :

ما شأنه ؟

ـ انه خطيب البنت ، ولا يرضى باقل من جنيهين .. فيتأوه سنان قائـلا :

ـ انها ثروة ، ثم انها سلسلة بلا نهاية ..

ـ هريدي ختام السلسلة .

ـ ولكن من اين لي بالجنيهين ؟

ـ خذ نقودك واذهب .

ويرد اليه الجنيه بحدة . يتناول سنان الجنيه بقلب طافح باليأس ثم يمضي بلا هدف . وتقوده قدماه الى البوظة فيسكر حتى يقول لنفسه :

ـ سأبلغ مناي ولو طرت اليه فوق سحابة ..

ويذهب من توه الى ام عليش بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح بيت ام علي الداية فتقول له مستاءة :

ـ اني لا اتعامل مع الزبائن في حجرتي .

***

فيرمي بثقله فوقها فجأة ويكتم انفاسها ولا يتخلى عنها الا وهـي جثة هامدة ..

انه يعي تماما ضرورة ان يهرب في الحال قبل ان تكتشف الجريمة . لا يشك ان كثيرين رأوه وهو يتخبط في الحارة ثم وهو يتسلل الى بيت أم علي الداية . انه يعي تماما ضرورة الهرب ولكنه لا يفكر الا في الحب .

ويذهب الى المعلم حلمبوحة فينقده الجنيه ثم يمضي الى هريدي الحملاوي بالجنيهين فيصحبه الحملاوي الى بيت ام سعد .

***

يقول الرواة ان سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل الملكوت .

وفي نشوة الخمر ارتمى على قدميها في هيام ، وما يدري الا وهو يبكي من الوجد . واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحـــة والصدق فقال :

ــ لقد قتلت ..

ولم تفهم المحبوبة كلمة ، ولم يقدم هو على الفعل .

وانطرح الزمن خارج وعيه حتى هل اول شعاع للضياء .

وارتفعت من الطريق جلبة ، ودقت الارض اقدام ثقيلـة ، فتلقى سنان اشارة خفية ، واستسلم باريحية للمقادر ..

**الحكاية رقم (٣٣)**

مرت فترة بحارتنا يمكن ان تسمى بعصر زينب .

الاب بياع فاكهة ، والام بياعة بيض ، وزينب آخرة عنقود مثقل بالذكور . وهي جميلة ، فلتة رائعة من الجمـــال ، وفي جمالها تتلخص حكايتها .

في طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الايدي ، في صباها تألقت تباشير الفتنة ، في الشباب استوت آية من البهاء والابهة .

ويقول زيدان الاب لزوجته :

ــ البنت يجب ان تحجب في البيت .

فتوافق الام كارهة اذ انها تفضل بطبيعة الحال لو كان في الامكان ان تسعى زينب لرزقها ..

ويتكالب الخطاب عليها فترتبك الاسرة حيال الطلاب ، وتقـــول الام :

ــ من العدل ان يكون حظها في قوة جمالها ..

لذلك ترفض يد ابن اختها سواق الكارو ، فتتمزق اواصر الاخوة ، وتنشب معركة بين الاختين تتفرج عليها الحارة ما بين شامت ومتعجب ولاعن .

ويتقدم لها في وقت واحد تقريبا حسن ( صبي طرابيشي ) وخليل (صبي جزار) فيجران الى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين .

واذا بفراج الدري المدرس يطلب يدها ، أفندي محترم وموظف حكومة ويعتبر بالقياس الى بيئة زينب حلما من الاحلام . وتقول الام :

ــ هذا من نرحب به ..

ولكن علي بياع القلل يعترض سبيل المدرس ذات يوم ويهمس في أذنه :

ــ ان تكن تحب الحياة حقا فابعد عن زينب ..

ويستعين المدرس بقريب قوي من اهل التحرش والتحدي فيعتدي الرجل على بياع القلل ، ولكن بياع القلل يضطغنها في نفسه ويتربص لفراج افندي ثم يفقأ عينه !

عند ذاك يجفل المحترمون من ابناء حارتنا ايثارا للسلامة ولا يبقى في الميدان الا الحرافيش .

وتهتف الام المغيظة :

ــ يا ميلة البخت ..

وتحتدم المنافسات ، وتتعدد الاعتداءات ، وتتساقط التهديدات ، ويلتزم آل زيدان الحياد التام خوفا من العدوان ، ورغم بلواهم وكربهم تلفحهم انفاس الحاسدين وألسنتهم ، حتى يقول زيدان لبعض اصدقائه :

ــ لقد حلت بنا نقمة اسمها الجمال !

وتتكرر الخناقات وتكثر الاصابات ، وتمضي زينب واسرتها لعنة مجسدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفية في الانتقام .

عم زيدان لا يجد فرصة ليتنفس في هدوء ، ويخاف أن يغدر غادر بزينب نفسها ..

ويطلع صباح فلا نقف لآل زيدان على أثـــر . ويتفشى الوجوم والكدر . وأمنى بخيبة لا يدري بها احد . وبحزن اتساءل :

ــ الا يتيسر للجمال ان يهنأ بالبقاء في حارتنا ؟

## الحكاية رقم (٣٤)

هنية بنت علوانة الدلالة من بطلات الحب في حارتنا .

أتساءل كثيرا عن سر حبها لحمام صبي الخياط البلدي . انه فتى سيء الصورة والسمعة ، شرس الطباع ، تعكس عينـاه نظرة تحـــد وعدوان ، يرتدي جلبابه على اللحم ويمضي حافي القدمين . ثم ان هنية بنت متعلمة ، مكثت في الكتاب ثلاث سنوات ، تفـــك الخط وتجمع الارقام وتحفظ جزء عم ، وامها ميسورة الحال ، ووقت الغداء تفـوح رائحة القلي من مطبخهم .

وهنية ترفض يد حامد المراكيبي بيـاع المراكيب عندما يتقـدم لخطبتها . وتبكي الام بحرارة وهي تحكي مأساتها لأمي :

ــ تصوري ، حامد المراكيبي الرجل الكامل صاحب القرش .

فتتساءل امي :

ــ كيف وبنتك عاقلة وحافظة كلام ربنا ؟

ــ قالوا لي انه معمول لها عمل فذهبت الى الشيخ لبيـب وزرت الاضرحة ونذرت النذور .

ولكن هنيـة تصر على رفض يـد حامد . وتغضب امهـا وتلطمها على وجهها وتصيح بها :

ـ تفضلين عليه المجرم ؟، بعدك ، ولكن مكتوب عليك الشقا .

ويتراجع حامد المراكيبي ويتلاشى ، ويبدأ حمام جادا في التفكير في اعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه . غير انه يتهم في هذه الاثناء بجريمة السرقة مع الاكراه فيقبض عليه ويزج به في السجن عامين .

تبتهج علوانة الدلالة بالحل الذي جادت به السماء وتقول لهنية :

ـ أرأيت ؟، سبحان الله الذي لا يعلو على برهانه برهان .

ولكن هنية تصر على رفض حامد المراكيبي وتغرق في حزن عميق حتى يشفق عليها الغاضبون . ويقول كثيرون انه لا حيلة لها في الحزن ، وان حمام لا يقتلع من قلبها بلا أثر . ولكنها تصر على الرفض حتى يمر العامان ويرجع حمام الى الحارة . وتدب الحياة من جديد في هنية ويجن جنون امها . ويلقى حمام صعوبة في العودة الى عمله الاول او الالتحاق بأي عمل آخر . ثم يرى سارحا بلحمة رأس وطبلية ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس المال ، ولا يعلم الا فيما بعد أن هنية هي التي امدته بأسورة ذهبية .

وتثور علوانة ثورة عنيفة وتستعدي على ابنتها القريب والجار ، غير ان هنية تعقد قرانها بحمام في القسم وتحت حماية الشرطة .

وأشهد بانها زيجة موفقة ، فهنية تشاركه في العمل وتديره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتت حتى ينجح او بالاحرى تنجح هي في فتح دكان له ، اما الذكريات القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها احد .

## الحكاية رقم (٣٥)

في موسم القرافة نزور أحيانا حوشا غير بعيد من حوشنا ، أرى

رجلا يقيم في حجرة المواســم اقامة دائمة كما يستدل من وجود الفراش والكنبة والصوان . أسأل امي عن هويته فتقول :

ــ ابن عمة ابيك رضوان افندي .

ــ لماذا يقيم في الحوش ؟

تتجاهل وقتها سؤالي . وألاحظ خلو الحجرة من الرجل في عــام تال ، واعلم انه انتقل من الحجرة الى القبر ، ثم اسمع قصته فيما بعد لمناسبة لا اذكرها .

أسرة رضوان افندي تتكون منه ومن حرمه ومن صبي وصبية . الام تشغف بالصبي على حين يشغف الاب بالصبية . يناهــــز الاخوان البلوغ فيمارس الاخ قوته في معاملة اخته باسم الغيرة والرجولة حتى تضيق به وبالحياة فيغضب الاب لها وتسوء العلاقات بينه وبين آبنه ، أو على قول امي :

ــ سكن الشيطان بينهما !

يتطور النزاع الى خصام اغبر ، تاديب من ناحية الاب بلا رحمــة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر ، حتى تفصل بينهما الكراهيــة العمياء فيتمنى كل للاخر الهلاك والفناء جهرا وبلا تحفظ .

وفي ختام المرحلة الثانوية يمرض الشاب بالسل ، ثم يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستة اشهر . موت قاس مطوي على المكر والخديعة والسخرية فانهارت الام وتلاشت امالهــا في الحياة وزلزل الاب زلزال الخوف والندم ، ويقول رضوان لابي :

ــ انها عملية نشل ، والخجل يمنعني من مواجهة امه .

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمرض اخته بنفس المرض .

وذات ليلة يجيئنا رضوان افندي وهو يجري حافيا مــــن اقصى الحارة ، مشعث الشعر دامي العينين فتهب الاسرة نحوه متسائلة وهي

على يقين مما تتساءل عنه . يقول الرجل وهو يلهث ويطالعهم بعينين انطفأ فيهما نور الحياة :

ـ انتهى كل شيء !

يصفي الرجل بعد ذلك تجارته ، يهجر بيته الى حوش القرافة ويقيم هناك على مقربة من قبر الفقيدين . وتصر حياته على الامتداد حتى يوافيه الاجل .

أما الام فهي تواظب على زيارتنا ،وأراها وأتصل بها وانا صغير وهي عجوز يبدو انها لا تذكر الماضي ، وتحب التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت . اتذكر جلستها وراء الاوراق المفندة وتكومي امامها في تشوف ، وهي تشير الى صورة وتقول :

ـ في سكتك واحدة ليست من دمك .

وتبتسم كثيرا فاقول لامي :

ـ تيزة وليدة خفيفة وتحب الضحك .

فتتمتم امي :

ـ ربنا معها ومع كل جريح .

## الحكاية رقم (٣٦)

في احدى ليالي الارق أرى من نافذتي هذا المنظر .

أرى شبح رجل يترنح ، يتلاطم مع الجدران ، يتعثر فيقع ثم يقوم بمشقة ، تندلق من فيه السائب أغنية « انا ابله كنت هبلة » ثم يندفع فاقد التوازن كأنه ثور يتوثب للنطح ، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح كالقتيل .

يراه بعض اهل الخير فيحمله احدهم ـ لعله فران ـ ليطرحه على

لوح عجين ثم يتعاون مع اخرين على رفعه ويمضون به ..

يصادفهم على بعد خطوات سكران اخر يترنح ويتعثر ويقوم ويقع واذا بالسكران الاول يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالاخر :

ــ اخص ، حقيقة انك مرة ، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك عليك الناس ؟.. سفخص .

في زمن متأخر ، وفي ظروف غاية في الجدية ، يعاودني ذلك المنظر حاملا الي معاني جديدة لم تخطر لي على بال من قبل حين رؤيته .

## الحكاية رقم (٣٧)

عم ينسون الصرماتي كهل لا تشوب سمعته شائبة . يموت ابنه رمضان عقب مرض لم يمهله طويلا . يحزن الكهل كالمتوقع ولكنه يقدم على فعل غريب يجعل منه أحدوثة الحارة قبل ان تجف دموعه . ما ندري الا وهو يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفى ، يعقد زواجه عليها ولما يمر على الوفاة شهر واحد !

هل جن الرجل ؟

وعلى فرض جنونه ألا يسعه ان ينتظر عاما او بعض عام ؟

وكيف توافق دليلة وفارق السن بينهما اكثر من اربعين عاما ؟

ولكن الخبر حقيقة لا شك فيها ، وها هي دليلة تنتقل الى بيت عم ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية اسرته .

وتتلوى الالسنة هامسة ، كان شيء بين المرحوم رمضان ودليلة ، يسره الزواج الوشيك ، والثقة بغد لم يأت ، وتدخل الموت فقلب الميزان، وتبدد الامان ، فسقطت دليلة في مأزق بلا حماية ولا أمل .

وتقف امها على السر ، وتفضي به الى ام رمضان ، وترمي به هذه

على زوجها المحزون ، مصيبة جديدة ، مصيبة بكل معنى الكلمة ، ولكن لا يمكن تجاهلها بحال ، البنت في مأزق ، الجاني هو الابن الذي يسأل له الرحمة ، ويفكر ويفكر ثم يعزم ثم يقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا .

تصبح دليلة زوجته ، وتلد في بيته وليدها .

وثمة اناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء .

وآخرون في غفلة وبراءة رموه بالحماقة والجنون .

أما غواة السخرية فيشيرون اليه ثم يتهامسون :

ــ هذا هو ابو حفيده .

## الحكاية رقم (٣٨)

وانا العب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .

اكثر من صوت يتساءل :

ــ خير انشاء الله .

فيبشرنا احدهم قائلا :

ــ قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل .

يتناهى الخبر الى فتحية قيسون وهي تغسل ملابس في طست امام مسكنها . تنتتر واثبة كالملدوغة ، تفك عقدة جلبابها ، تربط منديلها حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة ، تتناول ملاءتها من فوق حجر فتتلفع بها بسرعة مجنونة محركة طرفيها كجناحي طائر كاسر ، تلوح بقبضتها مهددة ، ترجع رأسها الى الوراء متوثبة ثم تندفع في طريقها على يقين من هدفها وهي تصيح :

ــ والنبي ومن نبى النبي لأسود حظه وأطين عيشته وأشوه وجهه

حتى ان امه نفسها لن تعرفه .

وتمضي مخلفة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة في الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الاشفاق والشماتة .

## الحكاية رقم (٣٩)

صبري الجواني يثير دائما عاصفة من التساؤلات .

من بيئة كادحة ، يعمل في دكان خردوات ، ثم ينتدب للجولان بشتى الخردوات في الاحياء المجاورة . يتغير جلده بسرعة تفوق كل تقدير ، تتحسن صحته ويكتسي بحلة النعمة الزاهية . ينتقل الى مسكن جديد ، يرى وهو راجع حاملا ورقة لحمة وفاكهة الموسم ، يجلس مساء في المقهى يدخن البوري ويحتسي الزنجبيل ، ويقضي بعض السهرات في غرزة المواويلي .

ويتزوج من بنت ناس ، ويرتدي البدلة بدلا من الجلباب ، وتنطق ملامحه بالرضى والثقة والامان . وفي ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر ويرقص ويغني ويبدي من فنون الانبساط ما لا يتصوره عقل .

وعقب الزفة يغادر الفرح ليرجع الى بيته ولكنه لا يرجع الى بيته .

يختفي فلا يوقف له على أثر او خبر .

## الحكاية رقم (٤٠)

يجلس وراء نافذة مصفحة بالقضبان ، يحملق في لا شيء ، تتحجر

في عينيه نظرة لا معنى لها ، رأسه صغير أصلع ، يغمغم بين ان وان :
ــ اين انت يا حبيبتي !
نرمقه مــن بعيد بحب استطلاع ، نتجنب اثارته كما نبــه علينا ، نتهامس :
ــ انظر الى عينيه !
ــ ماذا يعني ؟
ــ انه مجنون .
كان يرى قديما هائما صامتا ، يتابع كــل امرأة محجبة باهتمام ، يعترض طريقها فيفصل بينهما اهل المروءة .
ويقال انه رأى في حلم بنتا جميلة شغف بها ايما شغف ، وان الحلم يتكرر ، وانه يمضي باحثا عنها .
ويفقد الصبر فيأخذ في التهجم على النساء ويهم بجذب النقــاب ، ويتعرض بذلك للزجر والضرب والعنف . ويؤمن أهله بانــه ممسوس فيطوفون به على الاضرحة والشيخ لبيب ولكنه لا يبشر بشفاء .
ويقولون لابيه :
ــ المستشفى لأمثاله وسلم للمقادر .
ولكنه يحبسه في الحجرة ويصفح النافذة بالقضبان .
ويقبع نهاره وراء القضبان ، يحملق في لا شيء ، ويتقدم فــي السن ، ويغمغم من آن لآن :
ــ اين انت يا حبيبتي ؟

## الحكاية رقم (٤١)

ابراهيم القرد اضخم بناء انساني تشهــده عيناي . لا أتصور ان يوجد بين البشر من هو اطول او اعرض منه . مئذنة ، يتحسس طريقه بنبوت رهيب ، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان ، يقول اهل حارتنا انه من لطف الله ان يخلق ابراهيم القرد ضريرا .

وهو الشحاذ الوحيد في حارتنا فمنذ احترف التسول لــم يتجرأ شحاذ اخر على ترديد « لله يا محسنين » .

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو ، معتمدا علـــى نبوته ، يصمت طويلا ، ينفجر بصــوت كالرعد « يــا اكرم من سئل » ، يجيئه الطعام في اوقاته ، تتراكم الملاليم في جيبه ، يتبادل التحيات مع السابلة .

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فانه مثار للابتسام ، ولكن بلا حنق او حقــد ، فحسبه انه ابــن حارتنا وحسبه انه لا يستثمر قوته في العدوان !

ويشاء الحظ ان اشهد معركته الكبرى .

ففي احد المواسم يهبط حارتنا زلومة ــ شحاذ ضرير أيضا ــ من القبو راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر ، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر .

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبي مدخل القبو كأنهما حارسان . ويتلقى القرد باذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتي زلومة ، كما يتلقى انفه رسائل مغرية من جراب الاغذية ، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز .

ويهتف زلومة في غبطة :

ــ يا حسين يا حبيب النبي يا سيد الشهداء .. مدد .

فيقطب ابراهيم القرد ويتساءل بغلظة :
ـ مـــن ؟
فيجيبه زلومة ببراءة :
ـ سائل على وجه الكريم !
ـ وماذا جاء بك الى هنا يا بن الزانية ؟
فيسأل زلومة بحدة :
ـ أملكت ارض الله ؟
ـ الا تراني ؟
ـ اني أرى بنور القلب .
فيتمتم ابراهيم القرد :
ـ عظيم .
يتمطى بنيانه قائما ويمضي نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ، لا ادري ماذا يفعل به ولكني ارى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث .
ويتجمهر اناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، يبدر مـــن البعض كلمات غاضبة :
ـ افتراء وظلم .
ـ انت وحش .
ـ انت لا تخاف الله !
ويصيح ابراهيم القرد :
ـ عليكم اللعنات .
ويغضب احدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .
ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثـــورة مظاهرة زاخرة . كأنما هرست له دملا . يجن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته

ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والاشياء ، وينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتساع ، يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة ، يلوذ الناس بالازقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف .
وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يذهل الضابط عندما يدرك ان المعتدي ما هو الا شحاذ ضرير ، ثم يأمر جنوده بالقاء القبض عليه .

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود عزلا من السلاح بامر من الضابط ولكنهم لا يلبثون ان يتطايروا في الهواء كاللعب ، انه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان في الاطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب . الحق انني لم ار رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن . ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الاحمر :

ـ يا قرد . ستضرب بالرصاص ان لم تسلم نفسك في الحال .

ولكن القرد يتمادى في التحدي منتشيا بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة او بندقية ولكنه يستدعي بعض رجال المطافىء

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوته التي لا مفر منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع ، ثم يتهاوى فوق أديم الارض بلا حول فينقض عليه الجنود بالاغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميماً وتحيات حارة .. ، فيواصل حياته السابقة متعملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة .

## الحكاية رقم (٤٢)

البرجاوي منهمك في عمله بدكان الطعمية .

يمر به الكفراوي فيطلب منه شربة ماء . تتملك البرجاوي نزوة مزاح فيشير الى حوض الماء الذي منه تسقى الحمير والبغال ويقول :

ــ اليك الحوض فاشرب .

ويضحك اناس من الزبائن فيغضب الكفراوي ويصيح به :

ــ انت جبان وقليل الأدب .

فيغضب البرجاوي بدوره ويصيح به :

ــ ملعون ابوك وأجدادك !

وتتبادل قذائف من السباب ويتجمع مشاهدون من اعمار متفاوتة . ويسعى امام الجامع لفض الموقف ولكن احدا لا يلقي اليه اذنا فينسحب مستاء .

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوي طوبة يقذف بها الدكان فتحطم المصباح الغازي الكبير المدلى من السقف ويفقد البرجاوي اعصابه فيقبض على يد طاسة الطعمية ثم ينقض على الكفراوي فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركه الا جثة هامدة .

ويهرع الى مكان الحادث اهل الكفراوي واهل البرجاوي فيخوضون معركة دامية يستعمل فيها الطوب والعصي والسكاكين ، فيقتل من يقتل وينتهي مصير الباقي الى السجون .

وأعيش عمرا فلا ارى في داري البرجاوي والكفراوي الا نساء وبنات يسعين في السواد ، يحزنني ذلك بطبيعة الحال واعلق عليه بما يناسبه .

غير ان كثيرين من اهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضبات الهادرة والملاحم الدموية ، ويتشرفون جهرا بالسجون والمشانق .

## الحكاية رقم (٤٣)

حواش العداد من اصحاب المزاج في حارتنا .

في ليلة عيد يقرر ان يحيي سهرة كبـرى في بيته . يلبـــي دعوته كثيرون من الصحاب والمعلمين والمطربين والعوالم والراقصات . وتلعب الاوتار وتتهادى الانغام في جو من العربدة يهيج أشواق المحرومين ويثير استهجان اهل التقوى والورع .

ويتواصل الطرب والعربدة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم عميق ..

وعند ضحى اليوم التالي ، والحارة ثملة بافراح العيد ، تصدر عن بيت حواش العداد ضجة غريبة وصيحات فزع كأن صاعقة انقضت عليه.

ويهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون ، ثم تنتشر اخبار لم يسمع بمثلها من قبل .

يقول الرواة ان الداعي والمدعوين استيقظوا فوجدوا انفسهـــم مبعثرين في عالم خراب شامل لا يتصور ولا يوصف . انهم يتذكرون كيف ان النوم سرقهم من بين احضان المسرات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا اعينهم على عالم لا يرى الا في اعقاب زلزال مدمـــر . فالأثـــاث النفيس قد تحطم اربا ، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتتت أكواما ونثارا ، الشلت والمساند والستائر والاغطية قد تهتكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفا ، والقوارير والكؤوس والاطباق والموائد والجوز قـــد تكسرت وانتشر كسارها ، كذلك المصابيح والتحف وحتـــى السجـــاد والأبسطة والملابس . ماذا حدث ، لماذا حدث ، كيف حدث ؟!!.

وتحضر الشرطة فتعاين وتسجل وتستجوب ولكن التحقيق لا يسفر عن شيء . ويقال هنا وهناك ان خلافا دب بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبقِ على شيء ، وان رجالا من ذوي الجاه توسطوا عند المأمور

فغطى على الحادث بالحفظ ، ولكن لم يسمع ان احدا من المدعوين جرح جرحا عميقا او أصيب بعاهة .

ويقال ايضا ان اعداء لحواش العداد دسوا لهم منوما حتى ناموا ثم دمروا كل شيء بتصميم شامل ودقة وحشية بالغة ، ولكن الم يكن من المنطق أكثر ان يوجهوا انتقامهم الى الاشخاص أنفسهم ؟؟.

وعلى ذلك فلم يكن يصدق أحد هذا القول .

ويذاع كلام ايضا عن ان ما حاق ببيت حواش انما جاء نتيجة لغضب من الله استحقه باستهتاره وفسوقه وعربدته وان الداعي والمدعوين هم الذين خربوا دارهم وهم ذاهلون في غيبوبة ثم تداعوا نياما شبه أموات ..

وهذا تفسير يلقى عادة أذنا مصغية في حارتنا ، ومثله ما قيل عن دور العفاريت في الامر نتيجة لنذر نذره حواش ولم يوفه .

وتمر ايام وأعوام فلا يذكر احد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حواش العداد حتى يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

## الحكاية رقم (٤٤)

هذه الحكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده .

كانت الزاوية حديثة البناء وكان امامها وقتذاك الشيخ أمل المهدي. صعد الشيخ الى شرفة المئذنة ليؤذن للفجر فانتبه الى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية ، مد بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلا يطبق يده على فيها ليمنعها من الاستغاثة ، ثم يجذبها الى الداخل تحت المصباح الغازي المضيء ثم ينهال عليها ضربا بشيء في يده حتى تهاوت ساقطة . عرف المرأة كما عرف الرجل ، اما المرأة فهي ست سكينة أرملة

صاحب مقلى ، واما الرجل فهو المعلم محمد الزمر صاحب وكالة خشب .

تسمر الشيخ أمل المهدي في مكانه متدثرا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتى اغلق المعلم النافذة . وراح يتمتم :

ـ لقد قضى على المرأة .

وخانه صوته فلم يستطع ان يؤدي الأذان .

جريمة قتل ، ماذا أوجد المعلم في هذه الساعة ببيت الست ؟، توجد أكثر من جريمة ، ارحمنا يا رب السماوات والارض !

وهبط السلم الحلزوني بمشقة ثم جلس على الارض راكنا الى المنبر ظهره . وجاء أوائل المصلين فهالهم منظره وسأله بعضهم :

لم لم نسمع صوتك يا شيخ أمل ؟

فأجاب لاهثا :

ـ بي مرض والله اعلم .

وكان المعلم محمد الزمر هو من تبرع ببناء الزاوية ، هو الذي اختار الشيخ اماما لها ورتب له أجره ، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه :

ـ يا له من امتحان عسير من رب العالمين !

ورقد الشيخ في بيته ثلاثة ايام ولم يفتح فمه .

وانتشرت انباء الجريمة في الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست سكينة وجدت قتيلة في حجرة نومها وهي بجلباب النوم . وبدأ التحقيق، واستدعي فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدي .

سأله المحقق :

ـ ألم تسمع صرخة أو صوتا ملفتا للسمع وانت تؤذن ؟

فأجاب :

ـ كنت مريضا فلم أؤذن تلك الليلة ..

ـ أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئا عن علاقتها بأحد ؟

ـ كانت سيدة فاضلة ولا علم لي بشيء .

وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه : « انـي لمـن الهالكين » .

وجعل يبكي بشدة من الحزن والعجز .

واكتشف في اثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الحلـى فحامت الشبهات حول صبي كواء كان يتردد على البيت وفتش مسكنه فعثر على الحلى وبذلك وجهت الى الشاب تهمة القتل .

بدا ذلك كله منطقيا الا عند الشيخ امل ، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنوني ، مضى يحترق في صميم اعماقه وينهار عصبا بعد عصب . كان ورعا تقيا ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه .

ومن شدة القلق والحزن تهدم ودب الضعف في اعصابه .

والتقى ذات يوم بالمعلم محمد الزمر امام السبيل القديم فشد على يده كالعادة ، وعند ذلك انتفض كأنما مس ثعبانا ، وحدق فيه بقوة غريبة حتى تساءل المعلم :

ـ ما لك يا شيخ أمل ؟

فوجد نفسه يقول :

ـ لقد رآك الله !

فدهش الرجل وسأله :

ـ ماذا تعني ؟.. أنت مريض ؟.

فهتف به :

ـ اعترف بجريمتك يا قاتل !

ثم هرول الى الزاوية فأغلقها على نفسه بالمفتاح والمزلاج . لبث في سجنه يومين كاملين لا يستجيب لأهله ولا لأحد من الناس .

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره في شرفة المئذنة. ولكن أي ظهور كان ؟. تطلعت اليه الابصار بذهول وراحوا يقولون :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله ..

ــ الرجل الطيب عار تماما .

ــ يا شيخ امل وحد الله !

ومضى يدور في الشرفة متبخترا ويغني بصوت متحشرج :

أما انت مش قد الهوى بس تعشــق ليــه ؟

## الحكاية رقم (٤٥)

بحارتنا عامل بالسرجة يدعى عاشور الدنف . متزوج ، أب لعشرة ، في الاربعين من عمره . يتميز بقوة شديدة وملامح خشنة وفقر مدقع . يتواصل عمله من الضحى حتى منتصف الليل ، لا يعرف الراحة كما لا يعرف الشبع . يحتقن بالحسرات اذا رأى الناعمين في المقهى أو تطايرت الى أنفه رائحة التقلية . وهو يغبط حمار الطاحونة في السرجة كما يغبط العطار او صاحب وكالة الخشب .

ويقول ذات يوم لسيدنا امام الجامع :

ــ الله يخلق الرزق ولكنه ينسى أبنائي .

فيغضب الامام ويصيح به :

لقد بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعض لياليه رابطا على بطنه حجرا ليسكن به جوعه ، اذهب عليك اللعنة ..

***

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من السرجة يشق الظلماء

فيتهادى اليه صوت هامس ناعم يقول :

ــ يا عم عاشور !

يتوقف متلفتا امام نافذة مغلقة في دور ارضي ببيت الست فضيلة الارملة المستحقة في وقف الشنانيري ، ويتساءل :

ــ من ينادي ؟

فيجيئه الصوت :

ــ أريد منك خدمة فادخل .

المكان مظلم ، حتى شبح التمساح المحنط فوق الباب لا يرى . يمرق من الباب ويمضي صوب المنظرة مهتديا بضوء يلوح في شراعة بابها . يرى السيدة فضيلة متربعة على كنبة تركية فيقف بين يديها ناشرا في المكان رائحة عرقه الفظة النافذة . يراها مثل بقرة ريانة مثيرة ومغرية ، وجادة ومحتشمة في الوقت نفسه ، فتضطرب اعماقه بانفعالات متضاربة . وتقول المرأة :

ــ أريد زيتا وكسبة ..

تقولها ببلاهة ، بلاهة تفضح مكرا ساذجا ، وتنضح بشرتها باعتراف قرمزي ، ويلمح في جفنيها المسبلين معجزة الرضى والاستسلام ، ولكنه ليس الاستسلام الذي تبادر الى خياله ، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبرة، ويغادرها بعد ان يوقن بأنها تريده في الحلال !

***

ويلبث دهرا لا يصدق ، يتوهم انه يتعامل مع حلم من الاحلام ، ولكنه يتزوج من الارملة الغنية ، ويجري ذكره في الحارة نادرة من

النوادر ومثالا من الامثلة . لا يبالي طبعا أن يترك لها العصمة في يدها ، ويترك عمله بالسرجة كما شرطت عليه ، ثم يطالع الناس في زي جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم . وبمشيئة ست فضيلة لا يطلق زوجته القديمة ، وترتب لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من اعماق قلوبهم . هكذا يعيش عاشور احلامه القديمة فيشبع ويسعد .

***

وست فضيلة سيدة جميلة وكاملة ، تحبه وتسهر على راحته وتعيد خلقه من جديد .

وهي لا تفرط في شيء منه . ناعمة مهذبة وفية ولكنها لا تفرط في قيراط منه . ومنذ اللحظة الاولى يشعر عاشور بأنها حريصة على ملكيته ملكية كاملة ، ظاهره وباطنه ، أصله وظله ، حتى فكره واحلامه ، فهو يعيش بين يديها ، في الحديقة او المنظرة ، وحتى الساعة يقضيها في القهى يرى شبحها وراء خصاص النافذة يطل عليه ، ولكنه ينعم رغم كل شيء بالحب والراحة والشبع .

***

وعندما يعتاد عاشور الطيبات ، عندما تطوي العادة معجزات الهناء ، يتسلل الى روحه التثاؤب . يتوق الى ساعة يخلو فيها الى نفسه ، يهيم على وجهه ، يمازح صديقا ، يرتكب حماقة بريئة ، ولكنه يشعر دواما بانه مراقب ، خاضع ، مطارد . الحق أنه لا ينقصه شيء ولكنه سجين . ثمة

أغلال من حرير تحز عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة ، ويتدفق في روحه التثاؤب .

ويجد الزمن طويلا ، ويجد الزمن ثقيلا ، ويجد الزمن عدوا

ويقول لها ذات يوم :

ــ افتحي لي دكانا .

فتقول له :

ــ لديك ما تشتهيه النفس ، ماذا ينقصك ؟

فيقول متشكيا :

ــ كل رجل يعمل حتى الشحاذون .

ويوقن بأنها تخاف ان يستغني عنها بالعمل او يستقل عنها بالنجاح ، وهو لا يريد من العمل الا ان يهيىء له قدرا من الحرية بعيدا عن نظرتها المستقرة .

***

ويرتد عاشور الدنف الى التجهم والاحتجاج .

ويردد لسانه الفاظ التذمر والظلم ونوادرهما .

ويغلي غضبه ويفور فيقرر ان يفعل ما يشاء فتجتاح رياح الشقاق هدوء البيت السعيد .

ويتمادى في غضبه فيلطمها على خدها الأسيل ، فتطرده مـن الجنة فيذهب متحديا ..



ويتعرض في تشرده لمتاعب كثيرة ، يلتقط رزقه بعناء ، يتورط في اعمال مريبة ، يجلد مرة في القسم .

وتحن الست اليه فتعرض عليه الصلح بشروطها ، ولكنه يرفض ، يصر على الرفض ، يمضي في سبيله المحفوف بالمتاعب والمخاطر .

ويستحق عند ذاك ان يكون نادرة من نوع جديد في حارتنا .

## الحكاية رقم (٤٦)

كنت اعود سعد الجبلي في مرضه الاخير عندما ترامت الى الحجرة من الحاكي أغنية :

ما هوانت اللي جايبه لروحك بايدك يا قلبي

فتنهد سعد وابتسم وتمتم :

ـــ اي والله ، بايدك يا قلبي .

وتبادلنا نظرة نطقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة بالمسرات والآلام .

***

سعد الجبلي كاتب حسابات بدكان الرهونات بحارتنا . طموح بعيد الاحلام فيبيع أرضا يمتلكها ويستقيل من عمله ثم يتاجر في الروائح العطرية . يربح ارباحا كثيرة ، يصير من اثرياء الحارة ، ولكنه لا يتمتع في الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية .

كل ليلة يدعو الى بيته نخبة من الاصحاب ، يقدم الطعام والشراب، يلعب بأوتار العود ، يغني من له صوت مقبول ، تمتد السهرة حتى

منتصف الليل .

ثم يخيب تقديره في صفقة كبيرة ، لا يجد لديه من المدخر ما يسد به العجز ، يشهر افلاسه ..

يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء وأخوات على بـاب الله .

تمر به أيام قاسية شديدة ، تؤذي صحته وكبرياءه معـا ، ولكنه يبدو دائما رجلا قويا راسخ الاركان . يرجع الى عمله الاصلي في دكان الرهونات ، يعطي دروسا خصوصية في الحساب ، يعيش عيشة التقشف .

وايمانه قوي عميق .

أجل يشرب كثيرا ، لا يلتزم بالفرائض ، ولكنه مؤمن حقا ، يعتقد بأنه لن يصيبه الا ما كتب الله له ، وأنه لا مفر من المكتوب .

ولا يقعده عن العمل الا المرض فيلزم الفراش .

وأفكر بحال أسرته فيملؤني الأسى .

وأشير الى من يلعب في الحجرة من الصغار واقول :

ـ ربنا يشفيك من أجل هؤلاء !

فيقول باستسلام :

ـ اما الصحة فقد انتهت .

ثم يستطرد بثقة :

ـ اما الاولاد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويرفع اصبعه الى فوق ويقول :

ـ الخوف كفر بالله ، أعوذ بالله من الخوف .

ثم بنبرة ساخرة :

ـ أحسبت أن حياتي أطعمتهم حتى تخاف ان يجيعهم موتي ؟

أتمعن ايمانه منبهرا من قوته .

غير ان سعد الجبلي لا ينسى الدعابة حتى وهو في اعماق المحنة ، فما ان يردد الحاكي :

ما هو انت اللي جايبه لروحك بايدك يا قلبي

حتى يتمتم باسما :

ــ اي والله ، بايدك يا قلبي ..

## الحكاية رقم (٤٧)

وشلبي الألايلي له حكاية تستحق الرثاء .

لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن مميز في حديثه هـو الاعجاب بأبيه . والفخر بالآباء شعار مألوف في حارتنا ولكن المغالاة فيه لا تخلو من دلالة ولا تسلم على المدى من تهكم . وأبوه كان كاتبـا في دكان الخردوات ، وكان طويلا عريضا ، والرجال يقيمون بالطول والعرض في حارتنا .

ويقول لي شبلي وهو يتنهد :

ــ طالما رأيت أبي بعيني طفل أو من خلال عيني أمي أيضا !

فأقول له :

ــ هذا حال كثيرين منا .

ــ ولكن الطفل يكبر ثم يعمل عادة في حرفة أبيه فيتسنى لـه أن يراه على حقيقته أما أنا فدخلت المدرسة وواصلت تعليمي فظل أبي في خيالي أسطورة ..

ــ أي أسطورة يا شلبي ؟

ــ أسطورة الجلال والثراء !

ثم يواصل بعد صمت قصير :

ــ ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم غريب ..

ــ عالم غريب ؟

ــ لم يترك مليما واحدا ، كانت صدمة ، وقلت انه الكرم قد أهلك ثروته ..

ويمضي في قصته او في اعترافه فيقول انه توظف ، وطمح ذات يوم الى الزواج من كريمة تاجر الغلال ، وأراد ان يزكي نفسه عنده فأخبره انه ابن الألايلي ..

ــ ودهمني الرفض ، تحريت عن السبب بالحاح شديد حتى عثرت عليه في ذكريات ابي !

ــ هكذا ؟

ــ تصور حالي ان استطعت .

ويجري لاهثا وراء مزيد من التحريات ينبش بها قبر الراحل فتتكشف له حقائق مريرة خافية ، أخطرها بلا شك اتهامه في شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن عاما . وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتبا عنده لصداقة قديمة بينهما .

شلبي الألايلي يجتر همومه وحده ، حتى امه لا تدري شيئا ، وهو يفشي أسراره الدفينة لا ليجد شريكا يبثه همه ، ولكن لتوهمه ان سيرة أبيه أصبحت نادرة على كل لسان .

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارا قاسية مناقضة في حياته ، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقية بل مثالية في عمله وحارته . وها هو يتحرر بالفضيحة من سيطرة آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة بالآخرين . ويعدل عن طموحه الى الزواج الممتاز ، ويثابر على التنويه بمآثر أبيه ..

ويقول لي مرة بصراحة صلبة :

ـ أهم شيء في هذه الدنيا ان نعرف الحقيقة ..
ويغمغم بثقة وأسى معا :
ـ الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ..

## الحكاية رقم (٤٨)

الاب موظف حكومي صغير وذاك أمر ـ على اي حال ـ نادر في حارتنا . لذلك ينشأ الابن ـ صقر الموازيني ـ محسودا بين أقرانه . ولكنه يقول لي ذات يوم :
ـ لو كان ابي صعلوكا ما عرفت الهم أو الغم ..
ويتوظف صقر مثل ابيه . وبعد عام من توظفه يتوفى أبوه موظفا صغيرا فقيرا ، لا يورثه الا أسرة مكونة من ام وعمة وأختين في سن الزواج وكلبة ، كما يورثه ايضا تقاليد راسخة تتعلق بالكرامة وتطلعات جامحة نحو الحياة الجميلة ..
وأكثرية النساء في حارتنا يرتزقن ، اما في أسرة الموازيني وامثالها فمقضي عليهن بالانتظار ، واجترار الاحلام ، ومقضي على صقر وحده ان يعمل بمرتب ضئيل ليعول اربع نساء وكلبة .
وتمضي الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ ، ولا فرجة له الا المقهى حتى منتصف الليل .
ويجد راحته في الشكوى فيقول :
ـ لن تتزوج أختاي أبدا ، فنحن لا نرضى بالصعاليك واولاد الناس لا يرضون بنا ، ومن ثم فلن يتاح لي الزواج أبدا ..
أسرة تعاني الاشواق والحرمان ، حتى الام والعمة لم يجاوزا الخمسين ..

وصقر شاب مستقيم رغم حيويته ، ذو استعداد شديد للحيـاة الزوجية ويحن لها حنينا :

ــ بيت صغير وزوجة وأبناء ، تلك هي الجنة !

ويتنهد وتذوب نظرته حسرة وأحلاما .

***

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر في صفحة وجهه الشحوب والشرود ، وبمضي الايام يتفجر الحرمان سخطا على الاهـــل والنفس والناس ، ثم ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة .

والنساء مجبرات على البقاء في البيت ــ الا لضرورة ــ منعا للقيل والقال ، تحبسهن التقاليد ، يجمعهن الحرمان ، يعذبهن الفراغ ، يتسلين بالنقـار .

أسرة في صراع دائم مع الحرمان والاهواء واليأس ، ونضال خفي مع حارسها الذي لا يقل عنها يأسا وعذابا .

حتى الكلبة تضطرب في جنبات البيت مختنقـة ، ممنوعة مـــن الانطلاق خوفا عليها من القذارة ، تلاعب الضيف بعنف ، تنقض علـى ساقه تتمسح بها ، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى ..

***

ويتقدم العمر ، صقر يغط في عزوبته ، وهن يذبلن ويغصن في الماء ، ويتسربل الجو بالقتامة . والشاب بقدر مـا يثير من عطف بقدر مـــا

يستوجب من ازدراء ، لا علة واضحة لذلك ، ربما لأنـه يصبح مثـالا للاذعان ، والانحناء حيال المصيـر المحتـوم ، ومرآة للاصطلاحات والأساليب النسوية المقتبسة من البيت .

ويوما أرى كلبته في الطريق وقد تدلت بطنهـا وانتفخت فأرمقها بابتسامة واعجاب :

الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة .

أما صقر فبات يمقت أسرته ، ويقول عنها :

ــ أسرة لا تعرف الموت ، كما لا تعرف الحياة ..

## الحكاية رقم (٤٩)

أمنية كل صغير في حارتنا ان يطوف به في منامه زائر الليل .

انه شخصية حقيقية بلا ريب ولكـن مملكتها المضيئة تستقـر في القلوب البريئة . وفي ليالي المواسم والاعياد يقولون لنا :

ــ استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشـاء واستسلم للنوم فربما اسعدك الحظ بمجيء زائر الليل ليحقق لك امانيك ..

وتتابعت تمنياتي خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهالات يزفرها القلب بين يدي زائر الليل ..

ــ يا زائر الليل اغلق الكتاب وخذ سيدنا .

ــ يا زائر الليل افتح لي باب التكية واملأ حجري بالتوت .

ــ يا زائر الليل جدد مباني حارتنا القديمة .

ــ يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت .

***

وفي صباي شهدت موكبا فخما يشق حارتنا يتوسطه رجــل بالغ الروعة . اكتظت الحارة بالرجال وسدت النوافــذ بالنساء ، جلجلــت الزغاريد والهتافات ، صدحت المزامير والطبول .

زار الدكاكين دكانا دكانا ، والوكالـــة والسرجة والفرن والحمام والكتاب والمدرسة والسبيل الأثري والقبو والزاوية والساحة ، حتــى البوظة والغرزة والقرافة وطاف بها .

بهرني منظره فانبعثت في قلبي فرحة لا حدود لها . وانتفض وجداني عن عقيدة راسخة « ان هذا الرجل الرائع هو زائر الليل » وانه جـــاء اخيرا استجابة لابتهالاتي في هدأة الليل ..

وهتفت بصوتي الرفيع الذي لم يناهز البلوغ :

ـــ ليحيى زائر الليل !

وحدث ما لم أتوقعه أبدا ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم كأنما اندلق في افواههم عصير الليمون المالح . وقرص امام الزاوية أذني وصاح بي :

ـــ يا لك من ولد قليل الادب !.

وأمر صاحب الوكالة احد خفرائه قائلا :

ـــ أبعد هذا الولد الشقي ..

ودفعتني الايدي الى بيتي وانا من القهر والمهانة في نهاية .

وجلست واجما محزونا دامع العينين حتى قال لي ابي :

ـــ انك أحمق ، أنسيت ان زائر الليل لا يجيء الا في المنام ؟!

## الحكاية رقم (٥٠)

في زمن مضى لم ادرك منه الا ذيله كانت الفتونة هي القوة الجوهرية في حارتنا . هي السلطة ، هي النظام ، هي الدفاع ، هي الهجوم هي الكرامة ، هي الذل ، هي السعادة ، وهي العذاب ..

جعلص الدنانيري فتوة خطير ومن اشد الفتوات تأثيرا في حياة حارتنا . يجلس في المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخم . وأنظر اليه بانبهار فيشدني ابي من يدي قائلا :

ــ سر في حالك يا مجنون .

وأسأل ابي :

ــ أهو أقوى من عنترة ؟

فيقول باسما :

ــ عنترة حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان ..

وهو عملاق مترامي الاطراف طولا وعرضا ، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه في حجم عجيزة ست ام زكي ، يتمايل فوق صهوة حصانه كالمحمل ، ولكنه سريع الانقضاض كالريح ، ويلعب بالنبوت في رشاقة الحواة ، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه .

لا يسمع صوته الا مزمجرا او هادرا او صارخا ، ودائما قاذفا سيلا من الشتائم . يخاطب احباءه بيا ابن كذا وكذا . يسب الدين وهو ذاهب للصلاة أو راجع منها . لا يرى باسما او هاشا حتى وهو يتلقى الاتاوات ويصغي الى الملق، يستوي في ذلك عنده صاحب الوكالة وحمودة القواد وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضرط او يكشف عن عورته !

يعجز مرة احد التجار عن دفع الاتاوة فيستمهله اسبوعا ولكنه لا يقبل فيضطر الرجل الى البقاء في بيته مع الحريم حتى يجيئه الفرج .

ويعاقب ناظر المدرسة ابن احد أتباعه فيعترضه لـــدى مغادرته المدرسة ويأمره بان يخلع ملابسه ليذهب الى بيته عاريا . يتوسل اليـه الناظر ان يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهـم متوثب ينتظر تنفيذ أمره . ويضطر الناظـــر الى ان ينزع ملابسه قطعة فقطعة وهو يبكي . يتوقف عندما لم يبق الا السروال فيزمجر الدنانيزي فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجري نحو مسكنه مشيعا بقهقهات العصابة .

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن اجبار شخص علـى تطليق زوجته ليتزوجها ، وهو كثير الزواج والطلاق . ولا يجرؤ احـد على الزواج من احـدى مطلقاته فيلقين الحيـــاة وحيدات يتسولن او ينحرفن ..

ويمرض يوما فيلازم الفراش اسبوعا ، ويخبره احد قراء الغيب بان ما اصابه انما اصابه نتيجة لدعاء بعض اهل الحارة عليه ، فلما يبرأ من مرضه يأمر بألا يحتفل أحد بعيد الفطر المبارك ، حتى زيارة المقابر حرمت علينا ، وتمر ايام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة والبيوت صامتة ويغشانا ما يشبه الحداد .

أيامه ايام رعب وجبن وذل ونفاق ، ايام الاشباح والأنات المكتومة ، ايام الشياطين والاساطير المخزية ، ايام التعاسة واليأس والطرق المسدودة.

ولكنه يرعب ايضا الحارات المجاورة ، ويسحق فتوات الحسينية والعطوف والدراسة ، فتمضي زفة العريس من حارتنا بـــلا حراسة ، ويتجنب الناس وقع خطانا اتقاء لتجهم المقادر ..



ويقدر لهذا الجبل الشامخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة .

يدعى الى فرح في الدرب الاحمر ، وعند مدخل البيت يتقدم منه غلام ويقول له :

ـ يا عم .

فينظر اليه من عل باستغراب ويسأله :

ـ ماذا تريد يا ولد ؟

وبسرعة البرق .

أجل وبسرعة البرق يخرج من جلبابه سكينا فيطعنه في اعلى الكرش ثم يشد السكين وكأنه يتعلق بها حتى المثانة !

بسرعة البرق وقع ذلك .

ويتجمد جعلص الدنانيري كأنما دهمه نوم ، وتنحط معدته خارج جسمه ، ثم يتهاوى كعمارة بكل ما يتضمن من قوة واقدام ووحشية وثقة في النفس والدنيا .

ويتبين ان الغلام ابن احد ضحاياه من كفر الزغارى دربته أمه وأعدته لتلك اللحظة .

***

ويجتاح الخبر حارتنا كالنار المستطيرة . نذهل ونفزع ونبكي ونصرخ .

وتتمعن الخبر وتتبادل النظر فيتسلل الى جوانحنا استرخاء وأمان وامتنان وفرح .

ويستقر بنا الحال فنؤمن بأن علينا ان نحزن رغم أننـا فرحون ، وان علينا ان نغضب رغم اننا راضون ، وان علينا ان ننتقم رغـم اننـا شاكرون .

ويضر بنـا موته كمـا اضرت بنا حياته وتكفهـر الحياة بلعنات الشياطين .

## الحكاية رقم (١٥)

العب امام البيت مبتهجا بشمس الشتاء .

في الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران .

وهو ذو نظرة حالمة وصوت عذب وملامح آسرة ، ويعجبني صوته وهو يغني :

عجايب والله عجايب ميصحش يـآ منصفين
تهجرني وتعشق غيري وعـواذلي مهنييـن

وفجأة يصمت عبده وتعرب ملامحه عـن حزن بلا سبب ظاهر ، ويخيل الي أنه يرمقني باهتمام .

ــ مالك يا عبده ؟

ولكنه لا يرد او بالاحرى لم يسمع . وكأنما يشرع في الضحـك ولكنه لا يضحك . وتند عنه صرخة ثم يسقط على وجهه . يتصلب عوده وترتعد أطرافه ويطفح الزبد من شدقيه ،

ويحمله أهل الخير الى داخل بيته .

وأقص على امي ما رأيت فهتفت بحرارة :

ـ الله معه ومع أمه المسكينة .

وأسمع همسا انه ممسوس وانه لا يوجد له دواء عند أهل الارض.

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله .

ويوما يرجع جعلص الدنانيري من القرافة في موكبه فتقف الحارة على الصفين ويركبها الهول ، الا عبده فانه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة ويقول :

ـ اني ألعنك وطظ فيك !

وأقول لنفسي جزعا : لقد هلك عبده .

ولكن الجبار يبتسم ، بل ويتأبط ذراعه ، ويمضيان معا في سلام .

لم يرحم الجبار أحدا في حارتنا الا عبده .

وتعلمني الخبرة مع الايام ان حارتنا تقدس طائفتين : الفتوات والبلهاء .

وتحوم أحلام صباي حول طائفتين .

أحلم حينا بالفتونة وجلالها .

وأحلم حينا بالبلاهة وبركاتها !

## الحكاية رقم (٥٢)

يقف زيان صبي مبيض بين يدي فتوة حارتنا السناوي مبتهلا فيقول له الفتوة :

ـ ان كنت صادقا فدعني أجربك .

فيقول زيان بحماس :

ـ تحت أمرك يا سيد المعلمين .

فيقول السناوي بهدوء :
ـــاقتل أم علي الداية .
ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل ان يفيق من ذهوله .
ويغوص زيان في هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه :

***

ـــ انها لمصيبة لم تجر لي في خاطر !
قبيل ذلك اللقاء كان زيان فردا مغمورا من أهل حارتنا ، ومـــن الشبان الكادحين في سبيل لقمة العيش .
وكان يطوي قلبه على حب مضطرم لأم علي الداية بالرغم من انها تكبره بعشرين عاما .
ويفكر في حاله فيتراءى له طريقه مسدودا ، ورزقه محدودا ، وأنه لن يروق في عيني أم علي ان لم يقلب حاله رأسا على عقب بضربة سحرية . لذلك حلم بالانضمام الى عصابة السناوي ليثب فوق حاجز الحظ وثبة موفقة .
ويتشفع لدى الفتوة بصديق لأبيه هو ميمون الاعور فيزكيه الرجل عند السناوي ويقدمه اليه ، غير ان اللقاء لم يستغرق الا دقيقة واحدة أمره في ختامها أمره المرعب :
ـــ اقتل أم علي الداية !

***

ويهيم زيان على وجهه في الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده الى مخرج . ويتسلل الى ميمون الاعور ليلا في الغرزة فيقبل يده ويقول لـه :

ـ يا معلم ، اني خجلان ، ولكنني لا أستطيع قتل أم علي الداية .

ويظن ميمون ان عجزه راجع الى قلة الحيلة فيقول له :

ـ ليس أسهل من ذلك فهي تدعى عادة الـى البيوت في أواخـر الليل .

فيقول يائسا :

ـ أمنيتي أن أتزوج منها ذات يوم .

فيقول ميمون باستهانة :

ـ اقتلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنسوان في حارتنا أكثر من الذباب !

ـ ولماذا أم علي بالذات ؟

ـ هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه ، وهو يريد ان يجربك ، بل لعله علم برغبتك في المرأة .

فيقول متنهدا :

ـ الحق أنني لا أستطيع القتل !

فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول :

ـ أحسبت الانضمام للعصابة لهوا ؟!

ـ أعرف الآن انني لا أستحق هذا الشرف .

ـ فات الوقت !

ـ فات الوقت ؟ ،

ـ لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة في الحارة .

ويمضي زيان وهو يعد نفسه في الضائعين .

ويفضي بهمه الى امه فتنصحه بالهرب وتحثه عليه ، وقبيل الفجر يغادر زيان بيته حاملا بقجة ملابسه وخمسين قرشا ، هاجرا بيته وحارته وعمله ، مستقبلا العناء والمجهول .

وكان فارق الزمن بين سعيه الى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من عمر حارتنا .

## الحكاية رقم (٥٣)

ومن فتوات حارتنا حمودة الحلواني . ويحكى انه الوحيد بينهم الذي عمر حتى بلغ التسعين من عمره ، كما أنه الوحيد الذي اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر .

وقد تاب وحج ولزم المسجد في آخر أيامه .

ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الامام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر ، فقال للامام :

ــ كثيرون يسيئون الظن بالفتوات ولكن اولاد الحلال بينهم كثيرون !

فابتسم الامام وقال متهكما :

ــ انك على رأس اولاد الحلال .

فقال حمودة بايمان :

ــ حصتي من الخير لا يستهان بها .

ــ عظيم ، أعطني مثلا يا معلم حمودة ؟

ــ أتذكر رجب الفل الذي اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات ؟.. أنا الذي دبرت مصرعه !

ـ ولكنها جريمة يا معلم .
ـ أبدا ، وأنا الذي قتلت سمعة الدنش الذي قتل ابن زوجته .
ـ ولكن ذلك لم يثبت وقد برأته المحكمة !
ـ طظ في المحكمة ، كان قلبي دليلي وهو اصدق الحاكمين !
ثم بعد استراحة قصيرة اذ كان الكلام يرهقه في أواخر عمره :
ـ ومن حسناتي أنني قتلت فهيمة الآلاتية القوادة المعروفة !
فقال الامام بازدراء لم تره عينا العجوز الضعيفتان :
ـ قيل وقتها انك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها !
ـ لا تصدق كثيرا مما يقال !
فضحك الامام وقال :
ـ زدني علما بحسناتك !
ـ وقتلت ايضا يمني الخيشي .
ـ وماذا كان ذنبه ؟
ـ العجرفة ، كان يسير في الحارة كأنه خالقها .
ـ تعني ان نفسه سولت له ان يقلد فتوته !
ـ انك عنيد ولا تريد ان تعترف لي بفضل .
ـ لا تغضب وزدني علما بحسناتك !
فضحك حمودة عن فم لم يبق فيه ناب واحد ولا ضرس ثم قال :
ـ حوادث القتل الباقية لا تعد من الحسنات وقد تاب الله علـي والحمد لله .
فقال الامام بعد تردد :
ـ ولكن أعجب ما سمعت مـن حوادث القتل مـا ذاع عن مقتل قرقوش العبد !؟
فضحك حمودة واستغفر الله ، فقال الامام بالحاح :

ــ حدثني بخبره يا معلم حمودة .

فقال الرجل الذي لم يبد قط ان ذكريات جرائمه تؤرقه :

ــ كنت جالسا في داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخن البوري ، لم يكن بيني وبينه شيء على الاطلاق ، فدخن البوري وشرب قهوته ثم قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى « غدا سأكون عندك في مثل هذا الوقت بالدقيقة والثانية كما اتفقنا فلا تنس » ، وما ادري الا والغضب يجتاحني فقررت في الحال قتله ، ولم يطلع عليه الصبح !

ــ أذلك كل ما كان ؟

ــ بلا زيادة ولا نقصان !

ــ ولكن ما الذي أغضبك ؟

ــ لا أدري ، حتى اليوم لا أدري .

ــ ولكن لا بد من سبب !

ــ ربما أحنقتني ثقته البالغة في نفسه وفي غده ، كان يتكلم بثقة وطمأنينة !

ــ ولكن لا بد من سبب غير ذلك ؟

ــ قل انه قتل بلا سبب !

فتعجب الامام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم يبق منه الا هيكل عظمي .

## الحكاية رقم (٥٤)

ومما يحكى انه كان بحارتنا شاب صعلوك يدعى عباس الجحش . لم يكن يوفق أبدا في اتقان حرفة ولا يمكث في دكان أكثر من أيام ثم يطرد شر طردة . وذات يوم رأى عباس عنباية المتولي بنت بياع

الدندورمة فأترع قلبه برحيق الحب المسكر . ولم يجد سبيلا مشروعا اليها فتفتق عقله عن حيلة ، أن يتآمر مع صحبه من الصعاليك علـى ان يمثلوا مع الفتاة دور المتحرشين وعلى ان يمثل هو دور ابن البلد الشهم . وخرجت عنباية لتتسوق في ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعربدة ، فوثب عباس الجحش من مجلسه على سلم السبيل ، فانقض عليهم كالوحش ، صرعهم واحدا في أثر واحد حتى طرحهم ارضا ، ثم تقدم من البنت وهو يلهث قائلا :

ـ مصحوبة بالسلامة .

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة . وجعلت من مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال .

وصادف ذلك وقتا خلت فيه الحارة من فتوة . ولم تكن الفتونة قد زالت بعد ـ فتساءل أناس ترى هل آن لحارتنا ان يكون لها فتوة ؟

ورأى احدهم عباس وهو يحوم حول بيت بياع الدندورمة فهتف به :

ـ أهلا بالجحش فتوة حارتنا !

واهتز عباس بالهتاف ولعبـت برأسه الاحلام ، وتحت سطـوة المخدرات قال لنفسه :

ـ فلنجرب هذه اللعبة !

وجمع أصحابه ، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعـد أن فـرش طريقه بالدعاية المناسبة . وكانت الحارة في حاجة ملحة الى فتوة لتحفظ ذاتها وكرامتها بـين الحواري المتصارعة . فاستقبلت عبـاس الجحش وصحابه بزفة وبايعته فتوة لها . وتحول الصعاليك الى عصابة ، وانهالت عليهم الاتاوات ، فتحسنت أحوالهم ، وازدهتهم الخيـلاء فخطروا في الارض كالجمال . ورويدا رويدا صدقوا أوهامهم .

وطلب عباس الجحش يد عنباية المتولي فقال له ابوها بوجه طافح بالبشر :

ـ بشرى لنا يا معلم !

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتم الا بعد الزفة .

وتنبه عباس متأخرا الى أن زفة الفتوة يجب ان تطوف بالحي كله ، وأنها الاختبار الرهيب للفتوة ، تجابهه فيها تحديات الاعداء ، فيرجع منها الى شهر العسل وعرش الفتونة أو يمضي الى القرافة .

لا بد مما ليس منه بد ، وماذا يمنع الحظ من ان يخدمه مرة أخرى ؟

وسكر وسكر اصحابه .

ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل ، وسار فيها رجال الحارة .

وعند باب زويلة .

عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف ورجاله .

رآه عباس فطارت الخمر من رأسه .

ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب الجحش حتى ركبتيه .

وهتف أهل حارتنا في حماس وبراءة فاضطر عباس الى ان يلعب بنبوته كذلك .

لا يمكن تأجيل القضاء الى ما لا نهاية .

وتقدم خطوات في سكون ثقيل فتقدم فتوة العطوف في غاية من الحذر .

واندفع عباس نحو خصمه حتى أذهل أصحابه

وفجأة .

وفجأة وبسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفي ثم انطلق في ظلماتها مثل رصاصة لائذا بالفرار !

ووجم الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .

ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .

ولم ير عباس بعد ذلك في حينا كله . وظل قرانه معقودا حتى سقط بمضي المدة .

## الحكاية رقم (٥٥)

الويل لنا عندما يشتـــد النزاع بين الحارات ، عندمـا تتصارع التحديات بين الفتوات .

نتوقع في الليل ان تجتاحنا هجمة غادرة ، تتعرض في تجوالنا في الحي لتحرشات مباغتة ، تنقلب افراحنا الى معارك دامية ، يسود وجه الحياة ويكفهر .

ويغدو الانطلاق الى الميدان محفوفا بالمخاطر اما التسلل عن طريق القرافة فيتهدده الشياطين وقطاع الطرق ، فننحصر في حارتنا كالفئران في المصيدة .

ذلك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا الماضية .

***

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور الشرقي ، يقولون :

ـ لا بأس بهدمه لنتسلل منه الى صحراء الجبل ، ومنها الى أطراف الاحياء البعيدة التي نتعامل معها ونحن في مأمن من الاخطار المحدقة بنا ..

والسور عتيق يكون الجناح الشرقي للحارة ويقع على مبعدة يسيرة من سفح المقطم . وتطيب الفكرة لنا فنعهد الى احد المقاولين من أبناء حارتنا بتنفيذ الفكرة . ويتساءل أناس :

ـ ألا يمكن ان يهتدي العدو اليها فيباغتنا منها ؟

فيجيب أصحاب الفكرة :

ـ الوصول اليها عسير ، فبينها وبين العمران صحراء لا تدوسها قدم فضلا عن انه من اليسير حراستها !

ويشرع العاملون في العمل ، ويتهيأ لنا ممر الى الصحراء نطلق عليه « ممر السبيل » حيث انه يبدأ من نقطة تقع وراء السبيل الأثري مباشرة . هكذا نخلق ممرا سريا للعالم الخارجي متجنبين طريقي الميدان والقرافة اللذين يحدان حارتنا من طرفيها .

ويتحدث مدرس الجغرافيا ذات مساء في المقهى فيقول :

ـ نحن نتوهم أننا حققنا الامان لأنفسنا وأنه لم يعد ثمة ما نخافه !

فيتعجب السامعون لقوله فيقول :

ـ كأن معاركنا مع الحارات المجاورة هي جملة ما يهدد سلامتنا !

فيزداد تعجب الناس من قوله وادعائه أما هو فيمضي قائلا :

هنالك خطر هائل لا يفطن له أحد ولكنه كفيل بالقضاء على حارتنا كلها بضربة واحدة ..

ولما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب :

ـ الممر الذي شق في السور الشرقي .

ـ ممر السبيل ؟

ـ لو ينهمر من السماء سيل فيكتسح السفح وينقض على الممر فيغرق الحارة !

وتتجمع في أعينهم أمارات الذهول والسخرية ويقولون :

ـ انها لا تمطر في العام الا مطرة واحدة وهي مطرة خفيفة كالدعابة ..

ولكنه يستطرد غير مبال باعتراضهم :

ـ الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا منخفضة في الوسط .

ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين :

ـ يريد منا ان نستهين بخطر داهم عاجل لاتقاء خطر وهمي لا يقع الا في خياله ..

***

وتمضي أعوام والحارة منهمكة في صراعها اليومي . المدرس يكرر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى الا هازئا حتى أطلق عليه « الاستاذ مسيلمة » .

***

وتربد السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسود وتهبط فوق المآذن .

وتهب عاصفة تدك العلالي فوق الأسطح وتلعب بأشجار التـوت في التكية .

وينهل المطر كأنه أنهار تتدفق من عل .

ويتواصل انهلاله ثلاثة ايام كاملة .

حدث كوني لم نعرفه من قبل وغضبة فلكية كاسرة . وينصب من الجبل طوفان فيندفع نحو الممر بسرعة قطار صاخب ، ويزمجر في هدير شامل تحت التماعات البرق الخاطفة وهزيم الرعد المجعجع .

وتختفي ارض الحارة تحت طبقات من المياه المركـزة المحصورة ، وتأخذ المياه في الارتفاع فتغرق البدرومات وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفلية وباحة السبيل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزانا ومن الساحة بحيرة ومن الممر الضيق بين التكية والسور العتيق نهـرا زاخرا ، ثم تجتاح المياه المقابر فتجرفها وتقذف بالعظام والجثث في أخاديد لا حصر لها تغطيها الاكفان والخرق البالية .

وتنهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافي وثقوبا فيهجر الحارة أهلها مذعورين وينتشرون في الصحراء لاجئين مشردين ، والخراب يحيط بهم وارثا الارض وما عليها ..

محنة لا تنسى .

وذكرى مبللة بالدموع .

## الحكاية رقم (٥٦)

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرر ــ كما فعل

زيان في زمن أسبق ــ محاولة الانضمام الى عصابة « الدقمة » فتــوة حارتنا . واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له :

ــ احذر ان تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحـــة أو هذا الجلباب المزيت ، كن مثل الماء الصافي النقي ثم جرب حظك ..

وقال له أيضا :

ــ فتوتنا يحب الجمال والنقاء ، وهو طراز وحده في سلسلة فتواتنا فافهم ذلك جيدا ..

واقتنع عبدون بأن الطريق الى الدقمة ممهد ميسور ، فذهب الى الحمام ليغير جلده في المغطس ، وأعد جلبابا ومركوبا جديدين . وفيما هو منهمك في تجديد نفسه سأله صاحب له :

ــ ماذا هناك يا عبدون ؟.. هل تفكر في الزواج ؟

فباح له بسره ، وكان الآخر صاحبا أمينا فقال له :

ــ ليست النظافة وحدها هي ما تهم الدقمة ، انه أيضــا يحــب الحكايات ..

ــ الحكايات ؟

ــ عنترة وأبو زيد وغيرهما ، فان لم تعرف السير تعذر عليك أن تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة ..

ــ ولكن تحصيل ذلك يطول !

ــ عندك الراوي في المقهى فلا تضيع وقتا ان كنت صادق الارادة حقا !

ثم قال له وهو يمضي عنه :

ــ تغير الزمن يا عبدون ، في بادىء الأمر كان الدقمة يرحب بأي رجل يروم الانضمام اليه ، أما اليوم فهو يستوي على عرش القوة دون منازع ..

وتفكر عبدون في الأمر مليا . وكان عبدون رجلا عاقلا . قال لنفسه انه من الحكمة ان يأخذ الامور بالهوادة والصبر والاتقان . وألا يتكالب على هدفه تكالبا يفسده عليه . لبث في الوكالة يعمل بهمـة ، وتزوج ، وواظب على السهر في المقهى يتلقى الحكايات على انغام الرباب . لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة ، فالعمـل في الوكالة شاق ، وأعبـاء الأسرة لا يستهان بها ، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل ، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيل حلمه العذب يوم يمثل بين يدي الدقمة في نقاء المـاء وثراء الرباب .

وذاع سره ، وعرف كل من هب ودب أن عبدون الحلوة يعد نفسه للفتونة .

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح ، فقال له أحدهم :

ــ النظافة مهمة ، والحكاية مهمة ، ولكن الشجاعة عند الدقمة أهم من الاثنتين !

ــ الشجاعة ؟

ــ أجل ، واحذر في الوقت نفسه ان تستثير غيرته فيحنق عليك بدلا من أن يرضى !

ــ وكيف أوفق بين هذا وذاك ؟

ــ تلك هي مشكلتك وعليك ان تحلها بالفطنة يا عبدون يا بـن الحلوة !

وقال له آخر :

ــ والقوة مهمة أيضا ، عليك أن تثبت قوتك ، عليك أن تثبت انك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنك قادر أيضا على تحمل الضربات مهما اشتدت ..، وعليك ان تثبت له أيضا ان قوتك لا توزن بحـال بقوته ..

ــ ولكن كيف يتأتى لي ذلك كله ؟

ــ تلك هي مشكلتك يا عبدون !

ساورته الحيرة ولكنه أراد ان يطمئن نفسه فقال :

ــ أهل الخبرة يقولون انه يحب الجمال والنقاء والخير ، وأشهد ان معاملته للبان تقطع بميله الأصيل للخير !

فتساءل الآخرون في حذر :

ــ وماذا عن معاملته للسقا ؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال باصرار :

ــ أخبرني ابي ذات مرة أنه يحب الفقراء .

ــ بوسعي أن أعد لك عشرة على الأقل من أفقر فقراء حارتنا قد نكل بهم وشردهم ..

خرج عبدون من الأحاديث مغتما مهموما حائرا ، حتى العدول عن الطريق خطر له ، ولكن الحلم كان قد سيطر على روحه فلم يسعه النكوص وتشعبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والربـاب وتجارب القوة والشجاعة ومغامراتهما . ومضى ــ رغم صلابته ــ ينوء بالعبء ، وتنزلق قدمه ، وتتراخى قبضته ، تبدد وقته وتشتت عقلـه وارتكب حماقات متلاحقة ، وتمادى في طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة ، وطلق ــ عقب مشاحنات كثيرة ــ زوجته ..

لم يكترث لذلك كثيرا وظن ان الوقت أزف للقاء الدقمة الذي لم يبق له غيره .

وتفحصه الفتوة مليآ ثم سأله :

ــ ماذآ تريد ؟

فأجاب عبدون :

ـ أن أصير ضمن خدامك ..

ـ أترى نفسك أهلا لذلك ؟

فأحنى رأسه ليخفي زهوه بمنظره الأنيق وقال :

ـ عندي ما يريد معلمي وزيادة !

فقال الدقمة بجفاء :

ـ لست في حاجة اليك ..

فذهل عبدون وقال بضراعة :

ـ في سبيلك فقدت أسباب حياتي جميعا .

فقال الدقمة بلا اكتراث :

ـ اعرف ذلك .

ـ وتطردني رغم ذلك ؟

فقال الرجل بنفاد صبر :

ـ بل أطردك بسبب ذلك ..!

وبات عبدون الحلوة نادرة تروى ..

**الحكاية رقم (٥٧)**

زغرب البلاقيطي من فتوات حارتنا المعدودين . وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر .

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنبوت لعيب . ولولا ايمانه ـ وهذا حقيقة ـ بأن هيبة الفتونة لا ترسخ الا بالنصر ما خاض معركة قط . ويصادفه التوفيق في معاركه فيضرب

فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثم يمتد ظله فوقنا كالشجرة السامقة بالفخر والطمأنينة . ونحبه جميعا وتتغنى بانتصاراته وننعم بأبوته اللطيفة. وهو يجلس كثيرا في المقهى ليتابع الحكايات ، ويقرب اليه أهل النكتة والمنشدين والزجالين ، وأحييه على صغر سني فيرد التحية بذوق يبعث في أعطافي النشوة والأمـل . وسلوكه معنـا فريد غير مسبوق بشبيه . يفرض على جميع أعوانه أن يكسبوا رزقهم بعرق الجبين لا بالبلطجة ، حتى هو نفسه يعمل تاجر جملة للخدرات ، ولا يطالب باتاوة الا للضرورة القصوى .

***

ولكن الفتونة هي الفتونة على أي حال .

فكلمة زغرب البلاقيطي هي الأولى والاخيرة في أي أمر من الامور. والتحكم مر ولو كان طول العمر تتيجته . انه يحذر الرجال من العربدة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيد حرية الغلمان في لعبهم .

ويغالي في التدخل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز لبطولة أبي زيد ، ويبطل الزواج الذي يراه غير متكافىء ، والطلاق الذي لا يعجبه وان رضي به الطرفان ، ولم يكن احد يتجرأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده في المقهى لنفوره منهما .

وفي كلمة كبلنا بالاغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه . وزاد من حرج الموقف تكاثر المتعلمين في حارتنا يوما بعد يوم ، وشدة حساسيتهم. وحدة ألسنتهم .

ـ اللعنة .. لم يبق الا ان نتنفس بأمره .

ـ انه مستبد ولكنه عادل ..

ـ مستبد يعني انه غير عادل .

يسمع ما لم يكن يسمع بحارتنا . لأول مرة نعاصر حملة على الفتونة في ذاتها وبصرف النظر عن مزاياها . لأول مرة يقال انه نظام بال وانه آن للشرطي ان يحمي العباد . لأول مرة يلعن الفتوة الطيب كما كان يلعن الفتوة الشرير .

ـ ويترامى التهامس الى زغرب البلاقيطي فيغضب ويصيح :

ـ أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا !

ويتجهم وينذر بالعنف .

***

وتتوجه قلوب نحو هجار الأقرع .

عملاق ورع وفيـــه شيء لله ، اذا اقتنـــع بخير اقدم عليه ملقيا بالعواقب جانبا .

وهو يقبع في الليالي في الساحة امام التكية يردد الأناشيد ويحدث نفسه . يتسلل اليه في الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون :

ـ أتريد يا هجار ان ترضي ربك ؟

فيعتقد هجار انه يسمع هاتفا من الغيب فيقول :

ـ لبيك !

فيهمس الرجل :

ـ لقد أعطيت القوة والبأس فحطم الأغلال ..

***

وينطلق هجار في الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدسة .
وتوقع الطيبون ان ينهار سجن الأغلال .
ويلوح هجـار المارد بنبوته . وفجأة يضرب امام الزاوية . ويثني بامرأة ماضية في الطريق . وينهال بنبوته على تجار وعمال وتلاميذ !
وهاجت الحارة وماجت ، وتصايح الناس :
ـ جن الأقرع ..
ـ اقبضوا عليه ..
ـ حاصروه واضربوه ..
ورمي بالطوب من كل موقع حتى سقط مضرجا بدمه .

***

لم نفقه لما حدث معنى . وظن كثيرون ان الرجل لم يفهم الرسالة أو انه أساء فهمها ، او ان في الأمر سرا ما زال خافيا .
ولكن التذمر من زغرب البلاقيطي يتزايد ، ويجهر كثيرون بمـا يضمرون ، ويعتدي الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة ، وتسري في الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل .
وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنها تقضي في النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد .
وتستعاد حادثة هجار الأقرع في ضوء جديد من الادراك فيصبـح رمزا للحياة الجديدة .

## الحكاية رقم (٥٨)

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الهلاك . في الحارة عصابات متخاصمة ، وبين الحارات المتجاورة خصام مستعر . ويغلي الحقد الاسود وتمج القلوب كراهية ، وتتكاثر حوادث الاغتيال ، وينذر الغد بكارثة .

وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض .

ثمة تجمعات من السحب القاتمة تنتشر في الأفـق ، غريبة في غير زمانها ، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس . وتتطاول نحو كبد السماء وتتداح فتخفي احداها الشمس وتواري الضوء المنير .

وتمضي التجمعات في التكاثر والتقارب ، وتتصل وتتلاصق فتتحول الى تكتلات شاسعة ، في بطء ولكن في ثبات واصرار حتـى تشكل في النهاية سقفا غليظا من السواد العميق .

وتشخص الاعين نحو السماء متسائلة ، مـن الطريق والدكاكين والنوافذ والاسطح تشخص الاعين نحو السماء .

وتـدب في السقف الأسود حركة متوترة فيبدو متموجا متصارعا متلاطما كأنه محيط من الظلمات مشتبكا في نضال ضار .

ويهرع الناس من البيوت الى الحارة يتابعون الاسرار الغامضة ، لا يدرون عم تتمخض ، ويتوقعون مزيدا من الاثارة المقلقة .

ويمضي الجو يتشرب بلون رمادي غامق ، يـزداد قتامة وتجهما ، ويمضي بحر السواد يقطر تنفا سودا ، تنتشر في الجو ثم تزحف هابطة في هدوء مخيف .

ويهجر الناس الحارة الى الميدان ، كذلـك يفعل أهـل الحارات المجاورة ، ينشدون في الانطلاق والتجمع البشري ما يفتقدون من أمان .

وتنفذ الى حواس الشم رائحة ترابية مثيرة للاعصاب ، ويأخذ الكون

في الاختفاء ، وتتخايل الاشباح ، ثم يغرق كل شيء في ظلام دامس .
وترتفع الاصوات المتهدجة :
ـ يا الطاف الله .
ـ ارحمنا يا رب العالمين .
وتشملنا ساعة من التوقع المتوتر لأي خطر داهم لم يجر لنا في خيال من قبل .
وتتلاحم الأيدي في الظلام لا تدري يد في أي يد توضع ..

## الحكاية رقم (٥٩)

غنام أبو رابية له قصة طريفة .
من ناحية الأصل يعد من فقراء حارتنا ، تفـوق في المدرسة وعين بوزارة الداخلية ، وترقى في درجاتها حتى شغل منصب المشرف المـالي على الأموال السرية .
يتميز عن صعاليك أسرته بالمسكـن النظيف ، والزوجة الجميلة ، والغذاء الطيب ، ولـه في مظهره هيبة ، وفي مجلسه قطـب يقصده ذوو الحاجات .

***

ويختفي ذات يوم غنام أبو رابية فلا تراه عين .

يتردد السؤال عنـــه في البيت والمقهى ، بين المعارف والاقارب والحساد . لا يظفر أحد بجواب حاسم ، ثمة غموض يكتنف الموضوع ويثير الحيرة والريب . ليس الرجل مريضا ولا على سفر ولا صلة لـــه بالسياسة مدها وجزرها ، ولا خصوم له على الاطلاق ، فلم يبق الا ان تحوم الظنون حول امور غاية في الحساسية . وان تختلف فيها الآراء تبعا للنوايا والعواطف الشخصية ، فنسمع حينا انه هرب ، ونسمع حينا آخر أنه قتل .

ويظهر غنام أبو رابية ذات يوم فجـأة كما اختفى فجأة . ويتزاحم المهنئون في داره . ويفسر الرجل سر غيابه بخصام احتدم بينه وبين مسؤول كبير في الداخلية ، تطور الى اعتداء من جانبـه باليـد على المسؤول الكبير ، فقبض عليه ، ولكنه أصر على موقفه حتى افرج عنه .

ويصدق الناس ذلك ويعدونه بطولة . ويحال غنام ابو رابية على المعاش قبل ميعاده القانوني بعشرة أعوام فيعتبـر شهيدا ، والناس ذوو استعداد فطري لسوء الظن بالداخلية .



ومع الايام تناقل الناس حكاية جديدة عن غياب غنام ابو رابية ، لا ادري كيف نشأت ، ولا من كان اول ناشر لها ، ولا مدى ما تنطوي عليه من صدق ، ولكنها رغم ذلك كله تنتشر وترسخ وتنضم الى تاريخ حارتنا.

يقال والله أعلم ان غنام أبو رابية استغل مركزه كمشرف مالي على الاموال السرية فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات ، وقيل أكثر من

ذلك . وانه ضبط وحقق معه واعترف . كان الموقف غايـة في الدقـة والحرج ، فالرجل محيط بأسماء من توزع عليهـم الاموال السرية في جميع المواقع ، وبوسعه ان يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العمـلاء وتنزع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة ، فما العمل ؟. طالبوه برد المبلغ في نظير العفو الشامل عنه ولكنه رفض . ألقوا القبض عليه لارهابه ولكنه لم يبال . لم يعثروا للمبلغ على أثر ، وتجنبوا تقديمه للنيابة حتى لا يبوح هناك بأسراره ، وكرروا المحاولة للاتفاق معـه دون جدوى . أدرك منذ بادىء الامر انه في الموقع الأقوى وتلقى كافة التهديدات بسخرية . وقال لهم :

ــ ألوف وألوف وألوف تنفق كل يوم على أوغاد بلا خلق فمـا الجريمة في ان أنال قروشا لنفسي وتراب حذائي أشرف من أكبر رأس فيهم ؟.. اني أرفض رد مليم واحد وأطالب بتقديمي للنيابة العمومية ..

ولم يكن في وسعهم ان يعتقلوه الى الابد ، ولا ان يتحملوا مسؤولية القبض عليه دون تقديمه الى النيابة أكثر من ذلك ، فاتفقوا معه على ان يلتزم بصون امانة المهنة لقاء ألا يسأل عما اختلس مع احالته على المعاش في الوقت نفسه .

وقد اشترى الرجل خرابة وشيد فيها عمارة واعتبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا ..

## الحكاية رقم (٦٠)

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين في نقش الأواني النحاسية .

يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار ، ويرى هائما على وجهه في الساحة امام التكية ، لا يعرف أحدا ولا يعرف نفسه . وسمعت امه بالخبر فمضت اليه ولكنه لم يعرفها ، نادته باسمه فبدا وكأنه يسمعه لأول مرة ، انه غريب ، غريب تماما ، وكأنما ولد لساعته .

واتجهت الظنون الى المخدرات ولكن ذهوله طال ، تجاوز اليوم . ويوما بعد يوم ، ثم استقر كحال جديدة ثابتة ، أصبح رمانة وعاء خاليا من الذكريات والعلاقات البشرية ، أصبح جثة غير هامدة . وقيل ـ كالعادة في حارتنا ـ انه ممسوس ، وعولج بوصفات شتى من الطب الشعبي المناسب ، كالبخور وزيارة الأضرحة والزار ، ولكنه لم يبرأ فسلم الأمر فيه الى الرحمن ..

***

وذات صباح تقرأ امه في عينيه نظرة جديدة ، نظرة متألقة تعكس شخصية غائبة كأنما هي ترجع فجأة من سفر طويل . يخفق قلب الام بالأمل وتهتف :

ـ رمانة !

فينظر رمانة الى شعاع الشمس الهابط من نافذة البدروم ويقول بجزع :

ـ تأخرت عن الدكان .

ويمضي مسرعا الى الدكان وأمه تجهش في البكاء .

ويقبل على معلمه قائلا :

ـ غلبني النوم فمعذرة يا معلم .

ويرمقه الرجل في صمت وارتياب ولكنه يتركه يزاول عمله وهـو يحدس بفراسة صادقة ما طرأ على الشاب . وينظر رمانة فيما حوله باهتمام ولما لا يجد ما يبحث عنه يسأل :

ـ اين بيومي ؟

بيومي صديقه وقرين طفولته ، توقع ان يراه كالعادة قبالته ، ولكنه لا يوجد ولا يريد احد ان يعير سؤاله عنه اهتماما .

***

ويعلم رمانة رويدا رويدا أنه غاب عن الوجود أشهرا كاملة . يتلقى هذه الحقيقة بنعومة وأناة ، ومع ذلك لا يدري كيف يهضمها . ويعـود للسؤال عن صديقه بيومي فيقال له :

ـ البقية في حياتك !

فيصرخ :

ـ بيومي مات !

ـ بل شنق !

ـ شنق ؟!

ـ اتهم بقتل زينب بياعة الحلى الزجاجية !

ويتمتم بذهول :

ـ بيومي قتل زينب !



قليلون جدا الذين عرفوا ان رمانة فقد صديقه الوحيد وحبيبته الوحيدة ، وأولئك قالوا أيضا :

ـ وهو يعلم الآن انه فجع في الحب والصداقة ايضا !..

وقالوا :

ـ لقد ذهبا مخلفين له الخيانة والخواء ..

***

وعانى رمانة تغيرا جديدا في الشخصية . لم يرتد الى الغيبوبة ولكن تسلل الى صميم روحه الخمول وخيم عليه الصمت . عاش محتجا رافضا كارها ، يذبل ويهزل ، حتى مرض مرضا اقعده عن العمل ، واسود الافق في عينيه .

وأرادت أمه ان تعزيه فقالت :

ـ لست فريدا في مصابك فمصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى !

فغادر المسكن من فوره قاصدا قسم الجمالية . مثل بين يدي المأمور وقال بهدوء :

ـ أنا قاتل زينب بياعة الحلى الزجاجية ..

## الحكاية رقم (٦١)

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش بالتسول وخفة اليد .

تسلل ليلة الى بيت ست ماشاالله عندما ثبت له غيابها في فرح . ولسبب ما رجعت ست ماشاالله مبكرة على غير توقع ، فما يدري الا وهي مقبلـة نحو حجرة النوم فانذعر واندس تحت الفراش وهو يرتعد .

أشعلت المرأة المصباح ، رأى ابن عيشة قدميها وأسفل ساقيها وهي تذهب وتجيء ، وسمعها وهي تترنم بحنان :

لك علي لما تيجي تبقى ليلة أبهة

ترى متى يتاح له الهرب بأمان ؟!

وغابت ست ماشاالله دقائق رجعت بأربع أقدام !. ثمة طرف جلباب مقلم ومركوب أخضر ، فانقبض صدر ابن عيشة وايقـن ان حبسـه سيطول !

قالت المرأة :

ــ آنست ونورت .

فقال صوت غليظ :

ــ لا يتصور أحد الا أننا في الفرح ..

وتناهى الى اذن ابن عيشة صوت مدغم لقبلات وهمسات مرحة .

وقالت المرأة :

ــ لن يتخيل مهما تخيل أنني أفلت من زحمة الفرح .

فقال الصوت الغليظ :

ــ سيقتلنا يوما ان لم نقتله !

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحـت الفراش ، وبـدأ تأثير المنزول ينمل حواسه ويزحف نحو جهازه التنفسي ، وينتشر في روحـه منذراً بعواقبه المألوفة .

وسبح ابن عيشـة في بحر لا شاطىء له ثم مضى يطير في الفضـاء بتؤدة وهيمان . حتى بلغ ذروة عالية نظر منها الى حجرة ست ماشاالله

فرآها بشيء من الوضوح على ضوء المصباح ، رأى العاشقين ، وحتى الرجل المختفي تحت الفراش رآه . تبدت المرأة عارية متموجة في سحابة من دخان رمادي على حين مضى الرجل — كقرد — يشب بين غصون شجرة فارعة . وترامى اللعب بلا نهاية غير أن عاصفة اجتاحت المكان المتواري فتطاير الدخان وتلاطمت الاوراق . واكثر من صوت نادى بالدم ، وتتابعت اصوات الارتطام والدق ، وتبودلت ضربات غاية في العنف والقسوة ، وأقبلت قوات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحب أثر …

وقرر ابن عيشة ان يواصل طيرانه في الفضاء مبتعدا ما أمكن عن كوابيس الارض ..، ولكنه ارتطم بشيء أو لعل شيئا ارتطم به .

وبمشقة استطاع أن يتملص من قبضة وأمكنه أن يحرك عنقه ..، وأن يرى الضوء …

وجر جرا من تحت الفراش .

وقف مترنحا في الحجرة ينظر في الوجوه المحدقة به بذهول .

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة :

— هذا ابن عيشة .. نشال يا فندم .

فقال الضابط :

— اخيرا تعلم كيف يقتل .

وقبض عليه .

ولكن التحقيق لم يسفر عن ادانته بتهمة قتل ست ماشاالله وعشيقها ثم قبض على القاتل في أثناء التحقيق .

وكان ابن عيشة يحكي قصته مرة كل ساعة . وقد أصابه لطف في آخر ايامه ، وكان يقال ان الدروشة هبطت عليه تحت فراش ست ماشاالله.

## الحكاية رقم (٦٢)

كان الحاج علي الخلفاوي من أغنياء حارتنا . عرف بالطيبة والصلاح اكثر مما عرف بالثراء ، يعطف على المظلومين ، ويعين الفقراء ، ويبر ذوي القربى . ومع الايام ازداد ورعا وتقوى ورحمة ، ولكنه خص آل مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها احد ممن يظلهم عطفه . وكان آل مهران قوما فقراء ، وبسبب الفقر انحرف كثيرون منهم فتورطوا في الجنح والجرائم واشتهروا بالعنف والبلطجة .

ولما شعر الحاج علي بدنو الأجل استدعى اليه أكبر أبنائه وقال له :

ـ لقد رأيت حلما .

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاج :

ـ آن لي أن أزيح عن صدري جبل الهم الأكبر .

فسأله ابنه :

ـ ما الحلم ؟.. وما الهم الأكبر ؟

فاستغفر الحاج ربه وقال :

ـ بخلاف الظاهر يا بني كانت حياتي مريرة !

ـ لم يا أطيب الناس ؟

فقال الحاج وهو يتنفس بمشقة :

ـ اريد ان احدثك عن آل مهران .

ـ انهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقون ، بل الحق انهم لا يستحقون الا العقاب .

فأسبل الحاج جفنيه وقال :

ـ انهم يستحقون كل ما نملك !

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكا لمهران الأب في شبابه الأول ،

وأن الوفاة حضرت الرجل وهما في سفر فسرق ماله .
ـ المال الذي استثمرته فصرنا به الى ما نحن فيه وصار آل مهران بفقده الى ما هم فيه .
قال الابن باضطراب :
ـ انك لا تعني ما تقول يا أبي .
ـ انها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .
وغمرهما صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج :
ـ كانت الحياة مريرة ، أريد ان أجنبك اللعنة ، أريد ان يرد المال لأصحابه .
فتساءل الابن محتجا :
ـ هل نعترف بأننا لصوص ؟!
فقال الأب بضراعة :
ـ هذه هي مشكلتك يا بني .
ـ بل هي مشكلتك أنت يا أبي .
ـ اني أتردى في حضرة الموت .
فتساءل الابن بجفاء :
ـ ولم لم تفكر في التكفير من قبل ؟!
وأغمض الحاج عينيه كأنما تلقى لطمة ، وغمغم :
ـ اللهم مد في عمري حتى أهيىء نفسي للقياك .
ولكنه مات قبل ذلك ، بل ان رواة القصة يتهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجل بنهايته .
هكذا تروى الحكاية ، وبدقة في التفاصيل لا تتاح الا لمن شهدها .
ولكن هكذا تروى الحكايات في حارتنا ...

## الحكاية رقم (٦٣)

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة في ضفاف الصبا . في أحـــد الأعياد مزق شلضم جلباب قرمة الجديد فاشتبكا في خناقة حامية ، فضرب قرمة شلضم بمقدم قبقابه فقطع حاجبه ، وسجل في وجهه أثرا باقيا .

منذ ذلك التاريخ القديم عششت عاطفة صفراء ضاربة للسواد في اعماقهما ، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط في المناسبات ، ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفاثة للحنق ، ويظل منظر احدهما قـوة غادرة ومتحدية للآخر .

في الكتاب يتبادلان الغمز واللمز ، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرض عليه سيدنا الشيخ عند أية فرصة سانحة .

ومات أبو شلضم وأقيم سرادق العزاء كالعادة ، ووقف قرمة فوق سطح غير بعيد وراح يغني :

حود من هنا وتعـال عندنا

ولما خطب شلضم بنت الفسخاني حاول قرمة خطفها منه ، بالحيلة وبتسويء سمعته عند أهلها ، وفي خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به اثرا باقيا كالذي تركه بوجهه من قبل .

وتزوج كل منهما وأنجب ، وتفرقت بهما سبل العمل ، وتقدم بهما العمر شوطا ، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل ، حتى انهما تبادلا السباب مرة في أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الامام :

ــ لعنة الله على الشيطان وصحبه .

وصارا في حارتنا نكتة ، تستثير الضحك من بعيـد ، وتنذر بشر متجدد .

وتحسنت احوال قرمـة ، ظهرت عليه النعمة ، فتح دكانا للدخان بأنواعه ، لمع الذهب في أصابعه وأسنانه ، وادعى أمام الخلق أنه ربـح ورقة نصيب فاستثمر ربحها ، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال معلمه ، وأنه لص لا أكثر ولا أقل .

وتوهم شلضم انه قادر على ان يشق سبيله مثله فامتدت يده الى مال معلمه ولكنه ضبط وحكم عليه بالسجن بضع سنين ، وغادره مفلسا ضائعا يرى غريمه في عداد الأعيان فجن جنونه ، ولم يجد بابا مفتوحا الا باب البلطجة فولجه بعنف ورغبة متصاعدة في الانتقام ، وجعـل هدفه الأول المعلم قرمة حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده . لم يعد قرمة صعلوكا كما كان من قبل ، انه يملك الآن مـالا وبنين وأسرة وجاها ويريد ان يحافظ عليها جميعا ، وان يتمسك بالحيـاة من خـلال تمسكه بها ، ولو تجشم في سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراءه حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه .

واستجاب شلضم لسياسة خصمه ليبتز ماله وليتمادى في ذلك بـلا نهاية وبلا حياء ، واستحر الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا عـلاج لها الا الموت .

ودبر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجـل ممن يؤجرون للقتل . وتوجس شلضم خيفة فقرر ان يقتل قرمة قبل ان يقتله .

وتربص له بليل ثم قتله .

ولكنه لم ينعم بالحياة من بعده الا ساعات اذ قتله القاتل المأجور ليستوفي بقية مستحقاته من أرملة قرمة .

هكذا قتل الرجلان في ليلة واحدة .

***

ويقول ابي بعد ان يحكي هذه الحكاية :
ـ الكراهية من الشيطان يا بني ولكن الانسان مثير للدهشة .

## الحكاية رقم (٦٤)

عرف الخفير سلامة بالضمير الحي .. كان من القلة النادرة التـي تقدس القانون في حارتنا التي لم تتعود بعد على احترام القانون لحداثة تحررها من الفتونة وتقاليدها المتحدية الاستفزازية ولاستقامته أثار دهشة أهل الحارة واستحق عن جدارة احترام المأمور والضباط . وتزوج سلامة أرملة تكبره في السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه في محنة لم تخطر له على بال . وأكد الشاب ـ ويدعى برهومة ـ المحنة بسطوه ليلا على أحد الحوانيت . وضبطه متلبسا الخفير الساهر اليقظ سلامة . وأعاد الخفير المسروقات وغطى على الخبر بضرب ابن زوجته ضربا مبرحا. وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنه خسر جوهره الذي ميـزه بين الناس ، وشعر بالخزي وخامره حزن عميق . وتمادى برهومة في فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب وقال له مرة :

ـ لا تضربني .. اني أحذرك .

فانقض عليه ليؤدبه ولكنه تراجع الى ركن وصاح به :

ـ سأعترف ، سأذهب الى القسم واعترف بكل شيء ، واعترف أيضا بتسترك علي !، ان ضربتني مرة أخرى فسأعترف !

وذهل سلامة ، وسأله وهو يكتم فيضان غضبه :
ــ أنت تهددني بعد كل ما فعلت من أجلك ؟
ــ لا تضربني والا اعترفت .
فصاح به :
اذن أقلع عن فسادك .
فهتف وهو يفر من وجهه :
ــ أنا حر !
وقال سلامة لنفسه محسورا :
ــ اني أفقد كل يوم شيئا ثمينا لا يعوض .
ولاحظ كثيرون ان الخفير سلامة قد تغير ، وان شائبة قد شابت استقامة قامته ، وهو من ناحيته شعر ان الناس يتغيرون ايضا ، ينظرون اليه باستهانة ما ، يجاملونه ولكن نظراتهم لا تخلو من سخرية ، لقد أوشكوا يوما مع اعجابهم به أن يحقدوا عليه لصلابة أخلاقه ، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون .

***

وأنهى سلامة عذابه بأن ذهب الى المأمور واعترف .
وتأثر المأمور ، أمر بالقبض على برهومة ، وقال لسلامة :
ــ قدم استقالتك كيلا ترفت ، اني أعطيك هذه الفرصة أكراما لتاريخك .

***

ولم يهمل سلامة بلا عمل طويلا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيرا عنده .

وعد سلوكه مثالا طيبا عند أناس ، كما اعتبر نوعا من البله عند أناس آخرين .

## الحكاية رقم (٦٥)

الشيخ لبيب وجه عتيق في حارتنا . تراءى لعيني معلما من معالم الحارة مثل التكية والقبو والسبيل . كان يتخذ مجلسه قبيل مدخل القبو. على فروة يجلس ، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدرة . ذو جلباب ابيض وطاقية خضراء ، مكحول العينين ضعيف البصر ، يطوق عنقه بمسبحة طويلة تستقر شرابتها في حجره .

تتقاطر النسوان على مجلسه ، يجلسن القرفصاء صامتات ، يرمين بمناديلهن وينتظرن كلمة تخرج من فمه . يغمغم ويتثاءب ثم يتمطى ، ينطق بكلمة مفردة مثل « تفرج » أو بمثل من الأمثال مثل « يا رايحين ربنا يكفيكم شر الجايين » ، فتفهم المرأة ما تفهم ، فيتهلل وجهها فرحا أو يغمق كآبة ، ثم تدس المقسوم تحت طرف الفروة وتمضي .

عاش الرجل دهرا رزقه يجري ، وكراماته تروى ، واسمه يتردد على شفاه ذوي القلوب الكسيرة وما أكثرهم في حارتنا .



ويطعن الشيخ لبيب في السن وتتغير الاحوال .

يندر تردد الزائرات عليه حتى ينقطع او يكاد . ويتكاثر التلاميذ ممن لا يرعون له حرمة ، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة .

ويهتف الشيخ :

ـ ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله ، وصحته أيضا . ويتوعد الناس والزمان بعقاب الآخرة ، ويتحسر على ايام الطيبين الذاهبين .

***

وأخيرا يسلم للزمن ، يتسول ، يمضي هاتفا مادا يده « كل من عليها فان » .

## الحكاية رقم (٦٦)

وراء قضبان نافذة بدروم يلوح وجه صبي صغير . اذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

ـ يا عم ..

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

ـ أريد أن أخرج ..

ـ وماذا يمنعك ؟

ـ باب الحجرة مغلق .
ـ ألا يوجد أحد معك ؟
ـ كلا .
ـ أين أمك ؟
ـ أغلقت الباب وذهبت .
ـ وأبوك ؟
ـ سافر من زمان .
ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم اليه مشجعا ويذهب ، ويلوح وجه الصبي الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق الى الناس والطريق .

## الحكاية رقم (٦٧)

عبده السكري ابن أحد حملة القماقم والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخر العنقود فأدخله عم السكري الكتاب فأحرز التفوق من اول يوم . ونصحه سيدنا الشيخ بالحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردد الرجل مليا بين ارساله الى معلم ليحترف حرفة وبين طريق الدراسة الطويل ، ثم قرر في النهاية الحاقه بالمدرسة . كان قرارا صعبا ، يعني ان يعيش عبده عالة عليه دهرا طويلا بدلا من ان يعينه بيوميته ، ولكن تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر . وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عم السكري بزهو :
ـ أصبح لي ابن من موظفي الحكومة !

ولكن عبده أصر على دخول المرحلة الثانوية . كان يمضي الى المدرسة ببدلته القديمة المتهرئة وحذائه المرقع وطربوشه المزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلم في السياسة ايضا . واستحق بعد ذلك ان يقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجان ، وان يختار بعد ذلك عضوا بالبعثة بانجلترا . من يومها أطلق على عم السكري « ابو المهندس » ، وذاع صيته في الحارة ، وضرب بذكاء ابنه المثل . كان حلم عم السكري في شبابه ان ينضم الى عصابة فتوة أو ينتصر في خناقة ولكن الزمن يتغير ويأتي بالأعاجيب .

***

ويشغل عبده وظيفة مرموقة في الوزارة ، وبفضله قام أول مصباح غازي في حارتنا .

## الحكاية رقم (٦٨)

من حكايات حارتنا التي لا تنسى حكاية عبدون اللاله .

الأب كان عاملا في البوظة والأم بياعة باذنجان مخلل ، أما عبدون فيعمل صبيا في الفرن .

يجيء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل الشبان . يحب سلمى

بنت ونس الكناس فيتزوج منها ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة .

نشيط ذو همة عالية ، يعمل من طلعة الصبح حتى أول الليل ، لا يرتاح ولا يهمد ، لا يتذمر ولا يشكو ، المعلم يقدره والزبائن يحبونه . يصلي العشاء في الزاوية ، يحضر الدرس ، يؤاخـي الامام ويسترشد بآرائه فيما يعن له من مشكلات . نزهته الوحيدة سماع الشاعر في المقهى ثم يرجع الى بيته متسوقا بطيخة أو خيارا أو سمكا مقليا .

وهو حليم يتحمـل نزوات المعلـم ، وسخافات بعـض الزبائن ، وسخريات الأصدقاء بأدب وابتسام .

***

ما أعجبه في حارتنا ، كأنه لا يسمع سبابها ولا يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصي والفتن من أهلها .

وذات يوم يظهر في الحارة بجلباب أبيض كالحليب وطاقية مزركشة ومركوب أحمر . وكلما التقى بصاحب عانقه أو بذي مقام قبل يده ، وقد أضرب عن العمل ، ولم ينطق في ذلك اليوم الا بجملة واحدة قال :

ــ اقتربت الساعة .

ويختفي ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو يستقبل الحارة بوجهه صامتا . ويتعجب الناس ويتجمهرون عند القبو . كيف صعد عبدون الى سطح القبو ؟، ماذا يفعل في مرتع الثعابين ووكر العفاريت ؟

ينادونه فلا يرد .

ثم يثب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم بعنف بأرض الحارة .

وأقول لنفسي كلما تذكرت مصرع عبدون اللاله :

ـ أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرا من ان أعرف لماذا عبدون انتحر .

## الحكاية رقم (٦٩)

نادرا ما يخرج الى الحارة ، واذ يخرج لحاجة يمضي مهرولا ، في عينيه حذر وتوجس ، في أذنيه صمم يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به ، لا يخترق القبو ، لا يزور المقابر . يعيش وحيدا في بدروم ، لم يتزوج لم يذعن لنزوة ، يقرض النقود بالربا ، يدعى أبو المكارم .

يلعنه الناس ولكنهم يقصدونه عند الضرورة .

ويبلغ السبعين من العمر ، يتجمع لديه مال وفير ، ثم يكف عن العمل .

يتغير حاله ، تظهر عليه أعراض غريبة ، يرى من نافذة البدروم وهو متربع على الارض مستقبلا الجدار بوجهه ، تمضي الساعات وهو لا يتحرك ..

ويذهب ذات مساء الى الامام فيقف امامه صامتا حتى يسأله الشيخ :

ـ لماذا جاء أبو المكارم ؟

فيقول بلا مقدمات :

ـ حلمت حلما ..

فيسأله عنه فيقول :

***

ـ جاءني شخص في المنام وأمرني بأن أحرق مالي عن آخره !
فيبتسم الامام ويقول :
ـ ربنا يجعله خيرا .
ـ ولكنه يتكرر ليلة بعد أخرى !
ـ ما شكل ذلك الزائر ؟
ـ لا أدري ، جفناي ينطبقان في حضرته . .
فيسأله الامام باهتمام :
ـ من نوره ؟
ـ أظن ذلك ..
ـ هل أعلن عن هويته ؟
ـ كلا .
فيصمت الامام مليا ثم يقول :
ـ أتستطيع ان تتصدق بمالك على الفقراء ؟
فيرمقه بريبة ثم يذهب .

وذات يوم من ايام الصيف وأديم الارض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتنبه الناس الى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم . يهرعون الى النافذة فيرون ابا المكارم واقفا عاريا تماما والنار تشتعل في ماله ..

***

ويهيم بعد ذلك على وجهه عاريا ، يلتقط الطعام من أكوام القمامة ،

ثم يقبع في ظلمة القبو . ويعثر عليه يوما ميتا تحت القبو فيدفن في قبور الصدقة .

ويرى أحد الاعيان حلما، يزوره سيدنا الخضرويبلغه انابالمكارمولي من أولياء الله وأنه ـ العين ـ مكلف باقامة ضريح فوق قبره .

ويقيم الرجل الضريح ، وبمرور الزمن تتلاشى ذكريات ابي المكارم وتبقى له الولاية ...

وأسأل أبي :

ـ وكيف عرف الوجيه ان سيدنا الخضر هو الذي زاره في المنام ؟

فيجيبني :

لعله صارحه بذلك .

فأسأل :

ـ لو كان أبو المكارم وليا حقا ألم يكن الأفضل ان يتصدق بماله على الفقراء ؟

ـ في تلك الحال كنا نعده محسنا لا وليا !

ثم يستطرد بعد صمت :

ـ العبرة بالحلم ، لقد منّ الله عليه بحلم ، فهل تملك انت حلما مثله ؟

## الحكاية رقم (٧٠)

سحب الخريف تتراكم فتقطر قتامة على حارتنا ، ها هم الباعة

يترنمون بحلاوة الجوافة والبطاطا .

ويشير رجل نحو القبو ويهتف :

ــ يا ألطاف الله !

ينظرون فيرون رجلا خارجا من ظلمات القبو ، عاريا كما ولدته أمه ، يتأوه ويترنح ، تخذله ساقاه فيقع على الارض ، ثـم ينهـض متشبثـا بالجدران ، يتلفت حواليه ويبكي .

يهرع اليه أهل الخير ، يغطونه ، يضمدون جرحا غائرا في رأسه ، يسألونه :

ماذا حدث لك ؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه :

ــ من انت ، ما اسمك ؟

يواصل أنينه بلا جواب فيسألونه :

ــ من أين أتيت ؟

لا جواب ولا أمل في جواب :

ــ أي مكان تقصد ؟

وبالتخمين وحده يعرف على نحو ما ما وقع له ، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق .

ويندمل الجرح ولكن العقل يذهب فيصبـح من اهل اللطـف . ويعيش في الحارة لا يبرحها ، آنسا الى ما يلقى من ستر ورحمة ،تطعمه الصدقات ، ينام تحت القبو شتاء ، وعند سور التكية صيفا ، كلامه هذيان أو أصوات مبهمة ، يضحك ويبكي لغير ما سبب ، ويظل مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف .

ولما كانت دواعي الاهمال والاحتقار هـي نفس دواعي الاجلال والتعظيم في حارتنا فان عبدالله ــ هكذا سمي باعتباره اسم من لا اسم

له ـ يحتل مع الايام مكانة سامية وتتحلق حوله هالة مبهمة من القداسة . يحيونه ، يلاطفونه ، يتوددون اليه ، يحيطونه بأسرار ، يؤولون أصواته المبهمة ، يتوارون وراءه ازاء المصائب المجهولة والأقدار الخفية .

وأسمع ذات يوم رجلا يدافع عن « ولاية » عبدالله فيقول :

ـ أي فرد منا لا تتيسر له الحياة الا بفضل معرفته للأصل الـذي جاء منه وللهدف الذي يسعى اليه ، أما عبدالله فقد تيسرت له الحيـاة وحظي ببركاتها مع جهله بكل ذلك ، من ينعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقديس .

## الحكاية رقم (٧١)

رجل غريب في المقهى .

الغريب في حارتنا يسترعي النظر ، فمن أين جاء الرجل ؟

جاء من ناحية القبو وهو ما يعني أنه جاء من ناحية القرافة غير مبارك الخطوات .

ويمضي الغريب الى الزاوية فيسلم على الامام وهو يقول :

ـ لا خاب من استرشد .

فيقول له الامام :

ـ نهديك بما نعلم والهداية من الله .

ـ انما أريد معلومات عن يوسف المر ؟

ـ لماذا يا أخي ؟

ــ كلفني بذلك أناس طيبون وأنت سيد العارفين .

فأدرك الامام ان الرجل ينشد المعلومات لحساب أهل فتاة يريــد يوسف ان يتزوج منها فقال :

ــ ولكنه متزوج !

ــ الدين يسر والحمد لله ..

ــ عائلة المر قديمة في الحارة وحرفتهم العطارة .

ــ وعمره ؟

ــ في الثلاثين ، يعمل في دكان أبيه ، له ثلاثة أبناء .

ــ يغيب أحيانا عن الحارة أسبوعا أو أكثر ؟

فيبتسم الامام ويقول :

ــ يبدو انك تعرف عنه الكثير ، ولكنه يغيب في رحلات تجارية .

ثم يتساءل الامام :

ــ من الذي كلفك بالتحري ؟

فيقول معتذرا :

ــ لست في حل من ذكره .

فيتضايق الامام ويسأل بجفاء :

ــ وحضرتك من تكون ؟

ــ أدعى عبد الآخر المقاول .

ــ أي مقاولات ؟

ــ كلا ، انه لقبي ، أما عملي فطحان غلال .

ويودعه ثم ينصرف .

ويتناهى الخبر الى يوسف فيدهش فيحلف بالله على أنه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال ، وتكثر التساؤلات عن الغريب وسره ، تحتدم مليا ثم تخف وتتلاشى ..

وذات مساء يرى الغريب قادما من ناحية الميدان .

يشق الحارة بلا توقف حتى يختفي في القبو ، ثم يميل الـى الممر الضيق بين السور العتيق وبين سور التكية ويمضي نحو القرافة ..

ويعلم يوسف المر بخبره فينطلق في أثره حتى يغوص في ظلمة القبو .

وتمضي ساعة فيقلق الأب ، ويذهب في أثر ابنه حاملا فانوسا لينير له الطريق مصحوبا ببعض عماله .

في القبو تترامى اليهم تراتيل الاولاد الأعجمية آتية من التكية ، وفي الساحة ، وعلى ضوء الفانوس ، يعثرون على يوسف مطروحا علـى الارض وقد فارق الحياة .

ومع ان الطبيب الشرعي قرر فيما بعد أن الرجـل مات بالسكتة الا ان قراره لم يحترم لحظة واحدة في حارتنا .

يهزون رؤوسهم ويتمتمون :

ـ الرجل الغريب !

ولكن من الغريب ؟، ولم قتل يوسف المر ؟

هنا تتبادل النظرات وتتناجى الهمسات وتنداح في الجو موجة من الأسرار الخارقة ..

## الحكاية رقم (٧٢)

وعكلة الصرماتي حكايته حكاية .

كان ابوه صاحب سيرك ، كان قويا وخلاقا . يشتهر عكلة منذ صباه

بالرشاقة الخلابة في الملعب .

يتوفى الاب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع . ينضم الى عصابة فتوة فيثبت صلابته وينال حظا من الثروة . وهو ذو رائحة خفية تجذب أشواق النساء فيستوي على عرش الهوى فتنة للقلوب ، ويوغر صدور الرجال حتى يقول له الفتوة .

ــ تأدب والا شوهت وجهك ..

وكأن قلبه لا يعرف الحب الحقيقي ، يهيم بالمرأة حينا ثم ينبذها ، وتفوق غزواته كل خيال ، ويؤمن أناس بأنه يؤاخي الشياطين ويستعمل السحر .

وفجأة يتزوج .

يتزوج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لهـــا ، ويستقر في بيت الزوجية استقرارا يبشر بالدوام .

ويزهد في الفتونة كما زهد في السيرك من قبل ويفتح دكان حلوى، ويربح ثروة لا بأس بها .

وبعد اعوام قليلة يسأم تجارته الرابحة فيصفيها ويفتح مطعم لحمة رأس وكبدة فينجح ويحقق ثروة أكبر من الاولى .

ويجتاحه حب المال ، يحل من نفسه محل النساء والسيرك والفتونه فيتاجر في المخدرات والاراضي ، ويبتاع بيتا ودوكارا ويتحلى بالذهب .

ويقرر ذات يوم ان ينقل مقامه من الحارة الى المدينة الكبيرة . يبني قصرا ويعيش عيشة الأكابر ، ويشتري عزبة ، ثم لا يرى في حارتنا الا عند عقد الصفقات .

ويعشق الترحل ، وما ان يجربه حتى يخلب لبه ، فهـــو يومـــا بالاسكندرية ويوما في أسوان ، ويزور البلاد العربية ، بل ويغامر برحلات في أوروبا ..

عندما تعجبه بقعة من الارض يفتتن بها ويصرح بأنه لن يبرحها حتى نهاية العمر ، ثم يعتادها ويروم غيرها ، ويعذبه عشق الاماكن كما عذبه عشق النساء والمال وغيرها من قبل ، وبين كل رحلة وأخرى يرجع الى حارته لرؤية الاصدقاء وعقد الصفقات ..

ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات فيتساءل :

ـ ماذا يمكن أن يصنع الانسان أيضاً ؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن من لا يغادر الحارة الا لضرورة .

ويتساءل عكلة :

ـ ترى أين جبال الواق ؟

ثم يتساءل مرة أخرى :

ـ وأين سور الدنيا ؟.. واذا أطل الانسان منه فماذا يجد ؟!

***

وتترامى عنه أخبار وأخبار .

يقال انه يدمن الشراب ، يقال انه يدمن المقامرة ، يقال انه يرتكب حماقات لا عد لها ولا حصر .

ويطول غيابه في الخارج حتى يظن أنه لن يرجع .

واعتبره الأهل مفقودا .

وتمضي السنون .

وذات صباح يعثر على جثة كهل في الساحة أمام التكية شبه عار .
ويتعرف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرماتي . ينظرون الى جثته ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم بالصمت الأبدي والسر المنطوي .
كانت حياته اسطورة ، وموته لطمة ..

**الحكاية رقم (٧٣)**

مصطفى الدهشوري ابن سقاء ولكنه من القلة الراسخة في العلم في حارتنا ، وهو أحد المدرسين بمدرستنا وصديق لأبي .
يسأل أبي وهو يجالسه ذات مساء في بيتنا :
ـ ما معنى الحياة ؟
يبتسم أبي ، ولما يجده جادا في سؤاله ومصرا عليه يحدثه بما يعلم عن الأصل والهدف ، والحياة والموت ، والبعث والحساب ، فيقول الدهشوري :
ـ اذن فأنت واثق من كل شيء ، من الحياة والموت وما بعد الموت، أعندك فكرة عما يحدث في القبر ؟
فيحدثه أبي عن التلقين وحساب الملكين ومستقر الروح وشفاعة النجاة في الآخرة ، وعند ذاك يقول الدهشوري :
ـ اليك قصة الجسد البشري ساعة بساعة من الوفاة حتى يستحيل

هيكلا عظميا ..

ويردد حديثا مرعبا ومقززا كأنه كابوس طويل ، فيهتف أبـي محتجا :

ــ كفى ، ماذا تريد ؟

ــ أريد ان أصور لك حقيقة لا شك فيها .

فيسأله ابي ساخرا :

ــ ألا تؤمن بالله ؟

فيبتسم قائلا :

ــ بلى ، لا حيلة في ذلك ..

ثم يواصل حديثه :

ــ ولكنه لا يتصل بي وأنـا عاجز عن الاتصال به ، بيننـا صمت قاتل ، وأرى في الحياة شرا لا تفسير له ، وأرى في الطبيعة عجزا ونقصا ، ولا أفهم لذلك معنى ، فلم أشـك في انـه ــ سبحانه ــ قرر ان يتركنا لأنفسنا ، بلا اتصال وبلا عناية ..

ويصارحه أبي بأنه يجدف تجديفا خطيرا ، ولكن الدهشوري يستمر قائلا :

ــ واذن فالايمان بالله يقتضي الايمان بتجاهله لعالمنا ، كما يقتضي منا الاعتماد الكلي على النفس وحدها ..

وسأله أبي غاضبا :

ــ أتتخيل حال الناس لو آمنوا بفكرتك ؟

ــ لن يكونوا أسوأ مما هم بحال من الاحوال وثمة أمل بأن يكونوا أحسن ..

ثم يشرح فكرته قائلا :

ــ لا تخش ان يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث اذ انها أمانة ملقاة علينا ولا مفر من حملها بكل جدية والا هلكنا ، واذا أمكن أن يوجـد أحيانا أمثال الخيام وأبي نواس فانما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن بفضل الجادين الكادحين الذين يقومون بحمل الامانة عنهم ، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع لهم الخبز والخمر والرياض ؟، واذن فلا تخش ان يأخذ الناس الحياة مأخذ اللهو ان وجدوا أنفسهم في عالم بـلا اله ، لا مفر من الجدية ، ومن الابداع ، ومن الاخلاق ، ومن القانون ، ومن العقاب ، وقد يستعينون أيضا بالعقاقير الطبية لمقاومـة الضعف في السلوك والتفكير كما يستعينون بها في مقاومة الامراض ، وسيفعلون ذلك باصرار ، ولن تهن عزيمتهم بسبب أنهم يجدون أنفسهم في سفينة بلا مرشد في بحر بلا شطآن في زمن بلا بداية ولا نهاية ، ولن تختفي البطولة ولا النبل ولا الاستشهاد ..

ويتريث قليلا متسامحا مع غضب أبي وسخريته ثم يستطرد :

ــ وذات يوم سيحقق الانسان نوعا من الكمال في نفسه ومجتمعه ، وعند ذاك ، وعند ذاك فقط ، ستسمح له شخصيته الجديدة بادراك معنى الألوهية وتتجلى له حقيقتها الأبدية ...

ويتواصل النقاش حتى ينال منهما التعب ، ثـم يتساءل مصطفى الدهشوري باهتمام :

ــ كيف يمكن ان أنشر أفكاري في حارتنا ؟

فيقول له أبي بحدة :

ــ أهل حارتنا غارقون في هموم الحياة اليومية ، يطحنهم الفقـر والجهل والبطش والعداوة ..

ــ ولكنها مشكلات لا تحل الحل الأمثل الا بأفكاري .

ـ أهل حارتنا لا يفهمون الا لغة واحدة هي اللغة المشتقة مــــن همومهم ، الحاوية لعذاباتهم ، المقدسة بأوراد الكائن المرجو عند الشدة الذي تريد ان تنزعه من قلوبهم .

ورغم حرص مصطفى الدهشوري تنسب اليه أفكار خارقة تسيء الى سمعته بين الناس فيثير لغطا يفصل بسببه من وظيفته وتتجهمه الحياة في حارتنا .

## الحكاية رقم (٧٤)

الأعور يتأهب لموعد غرامي في الساحة امام التكية . يعزم على انعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة ولكنه يسترسل في الشرب حتى يفقد ذاته تماما .

يغادر الخمارة عند منتصف الليل فيذوب في الظلام ، ويــذوب في الحب ، ولا يدري أين يتجه . يرتطم في الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه حيث ان جنونه غير مؤذ ، فيقبض على ذراعه دون أن يعرفه ، ويقول له :

ـ أرشدني الى طريق التكية .

فيتحرك نؤنؤ المجنون وهو يقول له :

ـ لا تترك ذراعي .. لماذا تريد التكية في هذه الساعة من الليل ؟

ـ أتريد الحق ؟.. اني ذاهب للقاء حبيبتي ..

ـ عظيم .. وأنا ذاهب أيضا للقاء حبيبتي .

ـ في الساحة مثلي ؟
ـ بل في التكية نفسها .
ـ ولكن الاسوار عالية .
ـ لا مستحيل في الليل ..
ويكاد الاعور ان يسقط من شدة الترنح فيقول متشكيا :
ـ نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد ؟
ـ لم يمض على سيرنا الا أسبوع واحد .
فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول :
ـ الزمن لا يرى في الظلام .
ـ والمحبوبة هل ترى في الظلام ؟
فيضحك السكران ويقول :
ـ اني لا اعتمد على عيني للتعرف على المحبوبة .
ـ اذن فأنت مجنون !
ـ ولكن أين التكية ؟
ـ نحن لم نسر بشهادتك الا أسبوعا واحدا .
ولكنني أقطع الحارة نهارا في ربع ساعة .
ـ في الليل تطول المسافة ، ألا ترى أننا لا نتوقف عن السير ؟
ويدوخ الأعور ، وتعجز ساقاه عن حمله ، فيسقط على وجهه ، ويروح في سبات عميق ، لا يستيقظ منه الا مع أول شعاع للشمس . ينظر فيما حوله بذهول فيجد نفسه امام الخمارة لم يبتعد عنها خطوة واحدة .

***

ويقول راوي هذه الحكاية ـ صبي الخمارة ـ أنه كان يقف عند

الباب ، يسمع حوار السكران والمجنون ، ويراهما وهما يدوران حول نفسيهما متوهمين أنهما يتقدمان .

ومن يومها والمثل يضرب بهذه الحكاية في حارتنا فيقال لمن يسترشد بمن لا يرشد : « انت سكران وهو مجنون فكيف تصلان الى التكية » ؟..

## الحكاية رقم (٧٥)

يدخل عمر المرجاني البوظة في غاية من الأبهة والأناقة .

جلبابه الأبيض يشع نورا ، عمامته المقلوظة تتوج رأسه ، مركوبه الأحمر يتألق ، تحت ابطه خيزرانة رشيقة .

يحيي الحاضرين ببشر ويقول :

ـ لتمتلىء قلوبكم بالهنا والأفراح .

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة في أعماقه ويبتسم .

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتز طربا ، ويقول لمن حوله :

ـ صدقوني أن الحزن في هذه الدنيا ليس الا وهما عابرا .

ويفرغ القرعة الثالثة في جوفه ويقول :

ـ ملعون من يلعن الدنيا ، لقمة حلوة ومرة حلوة وايمان حلو ، ماذا تريدون بعد ذلك ؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول :

ـ أنا سعيد يا جدعان ..

ويرقص بخفة وبهجة ..

واذا بصوت خشن لم يحدد مصدره يهتف به :

ـ نريد الهدوء .

ولكنه يواصل الرقص ، ويأخذ في الغناء ايضا :

شوفوا العجب حبيت فلاحة

فيعود الصوت الخشن قائلا :

ـ احترم نفسك واجلس ..

ولكنه يستمر في معانقة الفرحة ..

ويرتفع نبوت في الهواء ثم يهوي على رأسه ..

عند ذاك يتوقف عن الرقص ، يسكت عن الغناء ، تتصلب سحنته نافضة عنها لآلىء السعادة .. ثم يتهاوى على الارض ..

## الحكاية رقم (٧٦)

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول ان الحكومة ستهدم التكية ضمن مشروع للمرافق العامة . في لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين والوكالات والغرز والبوظة والخرابات في حارتنا .

ـ حارتنا ميمونة ببركة التكية .

ـ الخضرة والأزهار لا ترى الا في التكية .

ـ والاغنيات الالهية اين تسمع الا في التكية ؟

ـ وما المكان الذي لم يضمر أذى لانسان الا التكية ؟

وبالبحث والتحري تكشفت حقيقة غريبة وهي أن صاحب المشروع هو المهندس عبده السكري ابن حارتنا !

ويقول عبده :

ـ التكية تعترض مجرى الحارة كالسد وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال .

فيقولون له :

ـ وهل علمت أننا متضايقون من ذلك ؟.. وألا يوجد اكثر من سبيل الى الشمال ؟

ـ لا تنسوا أن القرافة ستنقل عما قريب الى صحراء الخفير وسيحل محلها عمران شامل ..

ـ طول عمرنا نسمع أن القرافة ستنقل وها هي باقية لا تتحرك ، فكيف هان عليك أن تقترح ازالة التكية المباركة ؟!

واشتد النقاش ، وحمي الانفعال ، وكتبت العرائض ، وحل بحارتنا توتر وحزن لم تعرفهما من قبل .

ويرتفع صوت معتدل يقول :

ـ لا وجه للعجلة ، فلننتظر حتى يتقرر بصفة نهائية نقل القرافة ويشرع في ذلك بالفعل ، عند ذاك يحق لنا ان نناقش مسألة هدم التكية ..

وغلب هذا الرأي فتراجعت الوزارة وتأجل المشروع .

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلا .

وأما القلة المعتدلة فهي تقول :

ـ فلتبق التكية ما بقيت القرافة .

## الحكاية رقم (٧٧)

أنور جلال جالس على سلم السبيل الأثري وهــو يضحك عاليا . أنظر اليه فيخطر لي أنه سكران أو مسطول فأمضي نحوه وأجلس الــى جانبه ثم أسأله :

ــ ماذا يضحكك ؟

فيجيبني وهو لا يكف عن الضحك :

ــ تذكرت أنني طالب بين طلبة متنافسين ، في مدرسة تجمع بــين طلبة الأزقة المتخاصمة ، في حارة وسط حارات متعادية ، وأني كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة ، في كـــرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لي عليها ، والمجموعة ضائعة في سديم هائل ، والسديم تائه في كون لا نهائي ، وأن الحياة التي انتمي اليها مثل نقطــة الندى فوق ورقة شجرة فارعة ، وأن علي أن أسلم بذلك كله ثم أعيش لأهتم بالاحزان والافراح ، لذلك لا أتمالك نفسي من الضحك ..

فأضحك معه طويلا حتى يحدجني بنظرة ساخرة ويسألني :

ــ هل تضمن أن تشرق الشمس غدا ؟

فأقول بثقة :

ــ أستطيع أن أراهن على ذلك ..

فيقول وهو يضحك :

ــ طوبى للحمقى فهم السعداء ..

## الحكاية رقم (٧٨)

عرفت الشيخ عمر فكري في بيتنا وهو في زيارة لأبي . هو كاتب محام متقاعد ، فتح عقب تقاعده مكتبا للأعمال لمعاونة أهـل حارتنا في شؤون الحياة بعد ان توثقـت اسباب الاتصـال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة . ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة ، ويقدم خدمات متنوعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمسرة التجارية وشؤون الزواج والطلاق .

سمعته وهو يقول لأبي بكل ثقة واعتزاز :

ــ من خبرتي الطويلة أستطيع ان أقدم شتى الخدمات في أي ميدان من ميادين الحياة !

تحركت في أعماقي رغبة قديمة كامنة فسألته :

ــ أتستطيع أن تقدم لي خدمة ؟

فنظر الي باسما وسألني :

ــ ماذا تريد يا بني ؟

ــ اريد رؤية شيخ التكية الاكبر !

فضحك الشيخ عمر عاليا وشاركه أبي ثم قال :

ــ ان الخدمات التي أقدمها جدية وتتعلق بجوهر الحياة العملية !

ــ ولكنك قلت انك تقدم شتى الخدمات في أي ميدان من ميادين الحياة .

ــ ولكن التكية خارج أسوار الحياة ؟

ــ هي ليست كذلك في الواقع ..

وقال لي أبي :

ــ أسمعه بعض ما تحفظ من أشعارها .

فرددت بسرور :

ــ بلبلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد .

فقال الشيخ عمر فكري مخاطبا أبي :

ــ ما أكثر الذين يرددون هذه الأشعار بلا فهم ( ثم ناظرا نحوي ) أتفهم معنى كلمة واحدة مما رددت ؟

فهززت رأسي نفيا فقال :

ــ انهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكن حارتنا مجنونة بهم فقلت له :

ــ انك قادر على كل شيء .

فتمتم أبي :

ــ أستغفر الله العظيم :

وسألني الشيخ :

ــ وما أهمية رؤية شيخ الدراويش لك ؟

ــ لأتأكد من تجربة مرت بي في طفولتي .

وقص عليه أبي قصتي القديمة فضحك الشيخ عمر وقال :

ــ أعترف لكما بأنني رغبت ذات يوم في رؤية الشيخ الأكبر .

ــ حقا ؟!

ــ قلت لنفسي ان الحارة كلها تردد ذكره رغم أنه لا يكاد يزعم أحد أنه رآه ، وولعت بفكرة رؤيته ولــع الأطفال ، ماذا يحــول بيني وبين ذلك ؟ ومضيت الى التكية ، طلبت مقابلة اي مسؤول بها ولكنهم لاقوني من وراء السور بتجهم وقلق ، ولم يبدوا أي استعداد للتفاهم . تكلمت بالاشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة ، حتى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب ، ورجعت معترفا بحماقتي ، يائسا من تحقيق فكرتي بالاتصال المباشر ، مقتنعا في الوقت نفسه بأن اقتحام التكية بالطريق المشروع متعذر او مستحيل ، وان اقتحامها بالتسلل خرق للقانون لا شك فيه لا يتوقــع

من رجل يقوم عمله في الحياة على احترام القانون ...

ـ هكذا عدلت عن رغبتك ؟

ـ لم أعدل عنها كما ظننت ، ولكنني جربت وسيلة ثانية ، طفت بالطاعنين في السن من اهل حارتنا ممن عرفوا بالتقوى ، فادعى بعضهم أنهم رأوه ولكن لم يتفق اثنان منهم على وصف محدد له ، اختلفوا لحد التناقض ، وهذا يعني في نظري أن أحدا منهم لم يره .

فقلت بحماس :

ـ ولكنني رأيته .

ـ انكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون .

ـ وما وجه الاستحالة في رؤيته ، ألا يخطر له أحيانا أن يتمشى في الحديقة مثلا ؟

ـ ومن اين تعلم أن الذي تراه هو الشيخ الأكبر وليس درويشا من الدراويش ؟

ـ وهكذا نفضت يدك من المسألة ؟

ـ ابدا ، كنت مجنونا اكثر مما تتصور ، ذهبت الى ديوان الاوقاف متحديا ، حصلت على معلومات لا بأس بها عن اوقاف التكية وعن فرقتهم الصوفية ، عن الدرويش المخصص لتسلم الريع ، ولكن لم أعثر على كلمة واحدة تخص الشيخ الأكبر فضلا عن كراماته التي تؤمن بها حارتنا .

فغصصت بالخيبة ورمقته بحنق ثم قلت :

ـ توجد وسائل أخرى ولا شك ؟

فقال باسما :

ـ يوجد العقل ، هو الذي خلصني من رغبتي المحمومة ، قال لي اننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر !

فسأله أبي :

ــ هل يصلح هذا دليلا على عدم وجوده ؟

ــ انه لا يقول ذلك ، انه يقرر حقيقة نعرفها جميعا وهي أننا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ الأكبر .

فقلت :

ــ ولكن توجد وسيلة ولا شك للتثبت من وجوده ومن رؤيته ؟

ــ لن يتأتى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد ، واني كما تعلم لا أحيد عن القانون أبدا ...

فضحك أبي وقال :

ــ اعترف انه توجد خدمة واحدة على الأقل لا تستطيع أن تؤديها يا شيخ عمر .

فجاراه في ضحكه قائلا :

ــ ليكن ، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر ؟، ألم تكن رغبة مضحكة ؟!

فسألته بحرارة :

ــ لم يغلقون في وجوهنا الأبواب ؟

ــ التكية شيدت في الأصل في خلاء لأنهم قوم ينشدون العزلة والبعد عن الدنيا والناس ، ولكن بمرور الزمن امتد العمران اليهم وأحاط بهم الأحياء والأموات فأغلقوا الابواب كوسيلة أخيرة لتحقيق العزلة .

وابتسم ابتسامة فاترة وقال :

ــ لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة وهي وان تكن غير مجدية في تحقيق رغبتك الا أنها قاطعة في أنه لا يمكن تحقيق الرغبة الا بوسيلة غير مشروعة خارقة للقانون .

***

تلك ذكرى لا تنسى .

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة القانون ، ولكنني في الوقت نفسه لا أستطيع تصور تكية بلا شيخ أكبر .

وبمضي الأيام لم أعد أرى التكية الا في موسم زيارة المقابر ، فألقي عليها نظرة باسمة ، وأستقبل ذكرى أو أكثر ، وأحاول ان اتذكر صورة الشيخ او من توهمت ذات مرة أنه الشيخ ، ثم أمضي نحو الممر الضيق الموصل الى القرافة .

# مؤلفات الاستاذ نجيب محفوظ

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| **مصر القديمة** | (مترجم عن الانجليزية) | ١٩٣٢ | | |
| **همس الجنون** | مجموعة أقاصيص | ١٩٣٨ | الطبعة الثامنة | ١٩٧٣ |
| **عبث الأقدار** | قصة تاريخية | ١٩٣٩ | الطبعة السابعة | ١٩٧٤ |
| **رادوبيس** | قصة تاريخية | ١٩٤٣ | الطبعة السابعة | ١٩٧١ |
| **كفاح طيبة** | قصة تاريخية | ١٩٤٤ | الطبعة السابعة | ١٩٧٢ |
| **القاهرة الجديدة** | | ١٩٤٥ | الطبعة التاسعة | ١٩٧٤ |
| **خان الخليلي** | | ١٩٤٦ | الطبعة الثامنة | ١٩٧٥ |
| **زقاق المدق** | | ١٩٤٧ | الطبعة السابعة | ١٩٧٢ |
| **السراب** | | ١٩٤٨ | الطبعة الثامنة | ١٩٧٣ |
| **بداية ونهاية** | | ١٩٤٩ | الطبعة التاسعة | ١٩٧٣ |
| **بين القصرين** | | ١٩٥٦ | الطبعة التاسعة | ١٩٧٢ |
| **قصر الشوق** | | ١٩٥٧ | الطبعة الثامنة | ١٩٧١ |
| **السكرية** | | ١٩٥٧ | الطبعة السادسة | ١٩٦٧ |
| **اللص والكلاب** | | ١٩٦١ | الطبعة السادسة | ١٩٧٢ |
| **السمان والخريف** | | ١٩٦٢ | الطبعة الرابعة | ١٩٦٧ |
| **دنيا الله** | قصص قصيرة | ١٩٦٣ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٣ |
| **الطريق** | رواية | ١٩٦٤ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٤ |
| **بيت سيئ السمعة** | قصص قصيرة | ١٩٦٥ | الطبعة الرابعة | ١٩٧٥ |
| **الشحاذ** | رواية | ١٩٦٥ | الطبعة الرابعة | ١٩٧٤ |
| **ثرثرة فوق النيل** | رواية | ١٩٦٦ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٣ |
| **ميرامار** | رواية | ١٩٦٧ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٣ |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| **خمارة القط الاسود** | قصص قصيرة | ١٩٦٩ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٤ |
| **تحت المظلة** | قصص قصيرة | ١٩٦٩ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٤ |
| **حكاية بلا بداية ولا نهاية** | | | | |
| | قصص قصيرة | ١٩٧١ | الطبعة الثانية | ١٩٧٣ |
| **شهر العسل** | قصص قصيرة | ١٩٧١ | الطبعة الثالثة | ١٩٧٤ |
| **المرايا** | رواية | ١٩٧٢ | الطبعة الثانية | ١٩٧٤ |
| **الحب تحت المطر** | رواية | ١٩٧٣ | | |
| **الجريمة** | قصص قصيرة | ١٩٧٣ | | |
| **الكرنك** | رواية | ١٩٧٤ | | |
| **حكايات حارتنا** | قصص قصيرة | ١٩٧٥ | الطبعة الثانية | ١٩٧٨ |

# هذا الكتاب

وانا العب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .

اكثر من صوت يتساءل :

ـ خير ان شاء الله

فيبشرنا احدهم قائلا :

ـ قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل . يتناهى الخبر الى فتحية قيسون وهي تغسل ملابس في طشت امام مسكنها . تنتتر واثبة كالملدوغة ، تفك عقدة جلبابها ، تربط منديلها حاشرة ما تبعثر من شعرها تحته بلهوجة ، تتناول ملاءتها من فوق حجر فتتلفع بها بسرعة مجنونة محركة طرفيها كجناحي طائر كاسر ، تلوح بقبضتها مهددة ، ترجع راسها الى الوراء متوثبة ثم تندفع في طريقها على يقين من هدفها وهي تصيح :

ـ والنبي ومن نبى النبي لاسود حظه واطين عيشته واشوه وجهه حتى ان امه نفسها لن تعرفه .

وتمضي مخلفة وراءها توقعات خطيرة ورغبة محمومة في الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الاشفاق والشماتة .